جورج بيريك

النائم

ترجمة:

سلمان حرفوش

النائم

● النائم

● جورج بيريك

● ترجمة: سلمان حرفوش

● الطبعة الأولى 2000

● الناشر: دار الحوار للنشر والتوزيع:

اللاذقية – سورية – ص.ب: 1018 هاتف وفاكس:22339

العنوان الأصلي باللغة الفرنسية

Un Homme Qui Dort

Un roman de:

georges PEREC

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع

وزارة الخارجية الفرنسية

وقسم الخدمات الثقافية بالسفارة الفرنسية في سورية

Livre publié en collboration avec

le Ministére francaid des Affaires Etrngéres

et les Services Culturels

de l'ambassade de France en Syrie

إلى بوليت

للذكرى ج. ب

من غير الضروري أن تخرج من بيتك.
لازمْ طاولتك وأصغِ. بل دع الإصغاء واكتفِ
بالانتظار. بل دع الانتظار واكتفِ بالصمت
والعزلة. فسوف يحضر العالم واهباً نفسه لك
كي ترفع عنه أقنعته، ومنتشياً، سوف يتلوّى
أمامك.

فرانز كافكا

«تأملات في الخطيئة، والألم،
والأمل والطريق القويم»

حالما تغمض عينيك تبدأ مغامرة النوم. في البدء تلـــف العتمة الحجرة، فهي كتلة قاتمة اللون ترتسم فيـــها تفـــاصيل، تتعرف فيها ذاكرتك على الدروب التي مشيتها ألف مرة، معيداً رسم حدودها انطلاقاً من مربع النافذة الشديد الكثافة، مســـتبيناً المغسلة انطلاقاً من شعاع منعكس، والرّف انطلاقاً من ظـــــل كتاب يبدو أوضح قليلاً، مستوضحاً الكتلة الأشد سواداً بــــاب المعلقة. من بعد ذلك، تصبح، بُعيد برهة من الزمن، أمـــــام

حيّز محصور ببعدين، كما لو أنه لوحة غائمة الملامح متقاطعة بزوايا حادة مع مستوي عينيك، واللوحة كأنها مستقرة بميل خفيف عن الاستقامة العمودية من فوق أرنبة أنفك، وهي لوحة تلوح لك، بداية، بمسحة رمادية منتظمة، بل بمسحة محايدة، دون ألوان، لكنها سرعان ما تكتسب دون شك خاصتين على الأقل: أولاً أنها تزداد أو تخف عتمتها حسب تفاوت شدة إغلاق جفنيك، كما لو، بدقة أكبر، أن التقلّص المفروض على حافة جفنيك عند إغماض عينيك ينجم عنه تعديل ميل المستوى في علاقته مع جسدك، كأن حافة حاجبيك هي المفصّلة التي يدور حولها، وبالنتيجة، علماً أن هذه النتيجة لا تبدو قابلة للبرهان إلا ببداهة الوضوح، ينجم تعديل في كثافة، أو خاصية الظلمة التي تدركها؛ وثانياً أن سطح ذلك الحيز ليس منتظماً على الإطلاق، أو، بدقة أكبر، أن نشر، توزيع الظلمة لا يتم على التساوي: فالقسم العلوي، أشد حلكة بكل جلاء، والقسم السفلي، الذي يبدو أقرب، علماً أن تصور القريب والبعيد، المرتفع والمنخفض، الأمام والوراء، يكون قد بدأ يفقد دقته الكاملة، في جانب منه يتجلّى وقد طغى عليه اللون الرمادي، فهو ليس على ذلك الحياد الذي تراءى في بادئ الأمر، بل هو بكل جلاء

يزداد بياضاً، وفي الجانب الآخر يحوي، أو يحمل، غلافـــاً، اثنين، أو العديد من الأغلفة المختلفة، من الكبسولات، إلـــى حدٍ ما التصور الكامن فيك عن مدمع العين، مثلاً، أنه بحواف رقيقة مكتسية بالرموش التي في داخلها ترتعش، تضطـــرب، تتلوى ومضات بيضاء بيضاء، ناحلة كل النحول أحياناً، مثل تجعّدات دقيقة كل الدقة، وأحياناً تكون أضخم، مكتنزة تقريباً، كما الديدان، هذه الومضات، علماً أن "ومضات" كلمة في غير محلها على الإطلاق، قوامها تلك الفضيلة المحـــيّرة أن مـــن المتعذر النظر إليها. وحالما تضاعف من تركيز اهتمامك عليها، الأمر الذي يكاد يكون من المستحيل عدم القيام به، لأنها فـــي نهاية المطاف، تتراقص أمامك فكل ما سواها يكاد يفقد وجوده، إذ لا وجود بشكل محسوس إلا لحافة حاجبيك ولذلـــك الحـــيز الغامض الغامض ببعديه وهو يتملّص مـــن الإدراك قليـــلاً أو كثيراً، والذي تنتشر الظلمة فيه على غير انتظام، لكن حالمـــا تمعن النظر، علماً أن هذه الكلمة لا يبقى لها أي معنى، بكـــل تأكيد، حالما تمعن تفتيشاً، على سبيل المثال، كي تتأكد ولـــو أبسط التأكد من شكلها، أومن قوامها، أومـــن تفصيـــل مـــا، يمكنك التيقن من أنك ستعود إلى ذاتك شاخص العينين، مقـــابل

النافذة، ذلك المستطيل المتحول إلى مربـــع، علمــاً أنّ ذلـــك الغلاف أو تلك الأغلفة لا شبه بينها وبينه على الإطلاق. علـــى أنها، بالمقابل، تعاود الظهور وبرفقتها الحيّز المتفاوت الميــل قليلاً أو كثيراً والمتمفصل مع حاجبيك، من بعد إغماض عينيك ثانية، أوهي هي، تخميناً، لم تتبدل في المرة الثانية عمّا كانت في الأولى. لكنك لا تستطيع أن تكون على يقين من هذه النقطة الأخيرة، إذ، في مدى زمن يصعب حساب مدته، ورغم أن لا شيء يسمح لك بعد كي تجزم أنها اختفت اختفاء أكيداً، يمكنك أن تعاين كيف شحبت شحوباً ملحوظاً. أنت الآن حيال ما يشبه الامتداد الرمادي المحزّز، الملحق مازال بالحيز ذاك نفسه الذي يجعل حاجبيك يمتدان قليلاً أو كثيراً، لكنه، على مـــا يمكـــن القول، مشوه الشكل بحث ينتقل دائماً إلى الجهـــــة اليســـرى، فيمكنك مراقبته، والتعرف على جزئياته، دون أن تفسد انتظام المجموع، دون أن تُحدث يقظة مباشرة، على أن جميع ذلـــك مجرد تماماً من كل قيمة. فإلى الجهة اليمنى دون سواها يحصل شيء ما، هو في حالتك الآن لوح، إلى الوراء قليلاً أو كثيراً، إلى الأعلى قليلاً أو كثيراً، إلى الجهة اليمنى قليـــلاً أو كثـــيراً. واللوح بطبيعة الحال غير مرئي. لكنك تعلم أنه صلب، مع أنك

لست فوقه، إذ أنك، على وجه الدقة، تكون على شيء شـــديد الرخاوة هو جسمك دون سواه.تحدث آنذاك ظاهرة محيرة كـــل الحيرة: فهناك أولاً ثلاثة امتدادات ليس من المسموح لك بتاتاً أن تخلط بينها: جسمك الرخو، الأفقي والأبيض، ثم حافة حاجبيك المتحكمة في حيز رمادي، باهت، منحرف عنـــك، وأخـــيراً اللوح، وهوساكن وشديد الصلابة في الأعلى، على التـــوازي معك، وربما أنه في متناول اليد. فمن الواضح حقيقة، حتى لو كان هو الأمر الوحيد الذي يظل واضحاً، أنك لو تسلقت اللوح، فسوف تنام، وأن اللوح يجعلك تتوهم أنك سوف تحتاج لوقـــت كبير: فمن الواجب إعادة السرير، والجسم، إلى أن يصبحـــا مجرد نقطة، كرة صغيرة، أو، والأمر بالنتيجة هو هو لـــم يتبدل، من الواجب ضغط جميع رخاوة الجسم، وحصره فـــي موقع وحيد، على سبيل المثال في شيء ما كإحدى الفقـــرات القطنية. ولكن الجسم، في تلك البرهة، لم يعد يمثـــل إطلاقـــاً الوحدة الجميلة التي كان عليها قبل قليل، وهو، حقيقة، يتمدد في جميع الاتجاهات.وتشرع في إرجاع إبهام القدم نحو المركز، أو إبهام يدك، أو فخذك، لكن حينذاك، وكل مـــرة، توجـــد قاعدة تنساها. وذاك أنه لا يجوز أبداً أن تضيّع مـــن نـــاظريك

صلابة اللوح، وأنه كان من اللازم التحايل، وإرجاع جســدك دون أن يشتبه في شيء، دون أن تعلم أنت نفسك هذا الأمــر علم اليقين، لكن يكون الوقت قد فات جداً، وكل مرة منذ أمــد بعيد يكون الوقت قد فات جداً، وبالتالي، ويالها من نتيجة تثير الفضول، تنكسر حافة حاجبيك إلى قسمين، وفي المركز، ما بين عينيك، كما لو أن المفصّلة كانت ممسكة بالكل، وأن قوة تلك المفصّلة بأكملها كانت متجمعة في تلك النقطة، يهجم دفعة واحدة وجع واضح، تعيه دون أدنى ريب وتعرف على الفــور أنه أتفه أوجاع الرأس.

أنت جالس، عاري الجذع، وما ترتدي سوى سروال منامة، في حجرتك الصغيرة، فوق المقعد الخشبي الضيق الذي تستعمله كسرير، وكتاب، "دروس حول المجتمع الصناعي " لمؤلفه ريمون آرون، مستقر على ركبتيك، مفتوح على الصفحة مائة واثنتي عشرة.

في بادئ الأمر لا غير نوع من التعب، من الإرهاق، كأنما تنتبه فجأة أنك، منذ فترة طويلة جداً، منذ ساعات عديدة، فريسة وعكة مراوغة، مخدّرة، تكاد تكون دون أي وجع،

ورغم ذلك فهي لا تُحتمل، ذلك الانطبـــاع المفــرط العذوبــة والخانق، الانطباع بأنك دون عضلات ودون عظـــام، بـــأنك كيس من الجِبس، في قلب أكياس من الجِبس.

تخبط الشمس على صفيحات السقف التوتيائية. أمـــامك وجهاً لوجه على مستوى عينيك، من فوق رفّ مـــن الخشـــب الأبيض، يوجد كوب نسكافه فارغ حتى منتصفه، متسخ قليلاً، وعلبة من قطع السكر تكاد تكون فارغة، ولفافة تبغ تتآكل فـــي منفضة دعاية من الأوبالين المائل للبياض .

شخص ما يروح ويجيئ في الحجرة المجاورة، يسعل، يجر قدميه، ينقل بعض الأثاث، يفتح أدراجاً. قطرة بلوريـــة تتسرب دون انقطاع من صنبور الماء على مصطبـــة الـــدرج. وأصوات الجلبة في شارع سانت أونوريه تتصاعد مـــن أدنـــى الأسفل.

تدق الساعة الثانية في ناقوس سان روك. تعاود رفـــع عينيك، تتوقف عن القراءة، لكنك كنت متوقفاً عن القراءة منذ زمن. تضع الكتاب المفتوح إلى جانبك، على المقعد الخشـــبي الصغير. تمدّ يدك، تسحق لفافة التبغ التي كان دخانها يتصاعد من المنفضة، تكمل شرب كوب النسكافه: لقد فتر قليلاً أو كاد، وهو زائد السكر ومرّ المذاق قليلاً.

أنت غارق في العرق. تنهض، وتمضي باتجاه النافذة فتغلقها. تفتح صنبور المغسلة المتناهية الصغر، تمسح بقفاز الغسيل الرطب على جبينك، على رقبتك، على كتفيك، مطوي الذراعين والساقين، تضطجع على جنبك فوق المقعد الخشبي الضيق. تغلق عينيك. رأسك ثقيل وساقاك مخدرتان.

فيما بعد، يحل يوم امتحانك ولا تنهض، وما ذاك بالتصرف الذي سبق التفكير به، بل إنه ليس تصرفاً، إنما هو غياب كل تصرف، تصرف لا تقوم به، تصرفات تتحاشى القيام بها. نمت باكراً، وكان نومك هادئاً، وكنت قد ضبطت ساعة المنبه لديك، سمعتها ترن، كنت قد ترقبت رنينها، لدقائق عدة على الأقل، كانت الحرارة قد أيقظتك، أو هو الضوء، أو جلبة بائعي الحليب، عمال التنظيفات، أو هو الترقّب.

ترن ساعة المنبه لديك، لا تتحرك إطلاقاً، تظل في سريرك، تعود تغمض عينيك من جديد. ساعات تنبيه غير ساعتك تبدأ بالرنين في حجرات مجاورة.تسمع أصوات الماء، أبواباً تنغلق، خطوات تسرع على السلالم. يبدأ شارع سانت أونوريه بالامتلاء بضجيج السيارات، بصرير الدواليب، بتبديل السرعات، بالنداءات الخاطفة من المنبهات. تصطفق مصاريع نوافذ، يرفع التجار ستائرهم الحديدية.

لا تتحرك. لن تتحرك. شخص آخر، شبيهك، بديل شبحي مفرط الانضباط، يؤدي، ربما، عوضاً عنك، الحركات التي لم تعد تقوم بها، واحدة تلو الأخرى: ينهض، يغتسل، يحلق، يرتدي ثيابه، يمضي. تدعه يقفز على السلالم، يركض في الشارع، يلحق الباص بقفزة خاطفة، يصل في الساعة المحددة، لاهثاً، منتصراً، إلى أبواب القاعة. " شهادة الدراسات العليا في علم الاجتماع العام ". الامتحان الكتابي الأول.

تتأخر كثيراً في الاستيقاظ. هناك، رؤوس مجدّة أو ضجرة تنكبّ باستغراق على المقاعد. النظرات القلقة، ربما، من أصدقائك تتلاقى عند مقعدك الذي ظل شاغراً. لن تقول في أربع، ثماني، اثنتي عشرة صفحة ما تعلمه، ما تراه، ما تعلم أنه يجب أن يقال عن الاستلاب، عن العمال، عن العصر الحديث وعن أوقات التسلية، عن الياقات البيضاء والأتمتة، عن ماركس منافس توكفيل، عن فيبر خصم لوكاش. على أي حال، ما كنت لتقول شيئاً لأنك لا تعلم الكثير وليس لك أي رأي. مقعدك فارغ. لن تنهي شهادتك الجامعية، لن تبدأ أبداً أي دبلوم. لن تقوم بعد بأية دراسة.

تحضّر، كما في كل يوم، كوب نسكافه ؛تضيف إليه، كما في كل يوم، قطرات من الحليب المركز الممزوج بالسكر.

لا تغتسل، تكاد لا ترتدي ثيابك. في حوض البلاستيك الزهري اللون، تنقع ثلاثة أزواج من الجوارب.

لا تمضي إلى مخرج قاعة الامتحان لاستقصاء المواضيع التي طرحت على نباهة الطلاب المتقدمين. لا تمضي إلى المقهى الذي تعوّدت أن تذهب إليه، كما في كل يوم، على وجه الخصوص في مثل هذا اليوم ذي الخطورة الاستثنائية، كي تلتقي بأصدقائك. أحد هؤلاء، في صبيحة اليوم التالي، يسارع إلى تسلق الطوابق الستة المؤدية إلى حجرتك. سوف تتعرف على وقع خطواته على السلم. سوف تدعه يقرع بابك، يعيد القرع، بقوة أكبر قليلاً، يفتش فوق إطار الباب عن المفتاح الذي غالباً ما كنت تضعه هناك عندما كنت تتغيب لدقائق في نزولك لجلب الخبز، أو القهوة، لفائف التبغ أو الصحيفة أو البريد، ينتظر قليلاً أيضاً، يقرع قرعاً خفيفاً، يناديك بصوت منخفض، يتردد، وينزل السلم من جديد، بخطوات ثقيلة.

لقد عاد، فيما بعد، ودفع من تحت الباب كلمة. ثم جاء آخرون، في اليوم التالي، قرعوا الباب، فتشوا عن المفتاح، نادوا، دفعوا من تحت الباب أوراقاً.

تقرأ الأوراق ثم تكورها في يدك. إنهم يحددون لك فيها مواعيد لا تلبيها. تظل ممدداً على مقعدك الخشبي الضيق، ذراعاك وراء رقبتك، ركبتاك في الأعلى. تراقب السقف وتكتشف تشققاته، تقشراته، لطخه، تضاريسه، لا ترغب في رؤية أحد، ولا في التحدث، ولا في التفكير، ولا في الخروج، ولا في التزحزح من مكانك.

إنه يوم مثل هذا اليوم، بُعيد ذلك بقليل، قُبيل ذلك بقليل، حين اكتشفت دون أن تُفاجأ أن شيئاً ما لا يسير على ما يرام، وأنك كي تتحدث دون حذر لا تعرف كيف تعيش، وأنك لن تعرف أبداً.

تخبط الشمس على صفيح السقف. الحرارة لا تطاق في الحجرة الصغيرة. أنت جالس، محصور بين المقعد الخشبي والرّف، وكتاب مفتوح على ركبتيك. لم تعد تقرأ منذ فترة

طويلة. تظل عيناك شاخصتين إلى رفّ من الخشب الأبيض، إلى حوض بلاستيكي زهري اللون تتكوم فيه ستة جوارب. دخان لفافتك المهملة في المنفضة يتصاعد، بخط مستقيم أو يكاد، وينتشر في طبقة غير مستقرة تحت السقف المبقّع بشقوق صغيرة.

شيء ما يتكسّر. شيء ما قد تكسّر. لم تعد تشعر بأنك -كيف تقولها – متماسك: شيء ما، فيما كان يبدو لك، فيما يبدو لك، كان حتى حينه قد طمأنك، أشعرك بالدفء في القلب، الشعور بوجودك، تقريباً بأهميتك، الانطباع بالارتباط، بالاستغراق في العالم، قد بدأ يتملّص منك.

لكنك لست من الذين يمضون ساعات السهر متسائلين إن كانوا موجودين، ولماذا، من أين هم قادمون، ما هم حقيقة، إلى أين يمضون. لم تتساءل جدياً في يوم من الأيام أيهما الأسبق البيضة أم الدجاجة. لم تترك المسائل الميتافيزيقية المقلقة أثراً ملحوظاً على ملامح وجهك النبيل. لكن، لم يبق شيء من ذلك المسار السهمي، من تلك الحركة المتقدمة إلى الأمام والتي كنت فيها مطالباُ، على الدوام، أن تتعرف على حياتك، أي على معناها، حقيقتها، توترها: ماضياً حافلاً بالتجارب الخصبة، بالعبر المستقاة، بالذكريات البهيجة من

الطفولة، بالأفراح الريفية الطاغية، بالرياح المنعشة في أعالي البخار، حاضراً كثيفاً، متراصّاً، متجمعاً مثل نابض، مستقبلاً سخياً، مخضوضراً، منعش النسائم. ماضيك، حاضرك، مستقبلك، في اختلاط: إنها ثقل أطرافك لا غير، صداعك المراوغ، إرهاقك، الحرارة، المذاق المرّ والفاتر في النسكافه. وإذا كان لا بد من ديكور لحياتك، فليس هو الساحة الفخمة (عموماً، وهم منظور بعيد المدى) التي يلعب فيها ويتطاير الأطفال ذوو الوجنات المكتنزة المميزة للإنسانية المنتصرة، إنما، مهما بذلت من جهد مهما داعبت من وهم، ليس سوى هذا المصران من تحت السقف الذي تستخدمه كحجرة، هذا المأوى القميء بطول مترين واثنين وتسعين، بعرض متر وثلاثة وسبعين، أي أكبر قليلاً جداً من خمسة أمتار مربعة، هذه العليّة التي لم تتزحزح منها ساعات عديدة، منذ أيام عديدة: أنت جالس على مقعد خشبي صغير أقصر من أن تستطيع، ليلاً، التمدد عليه بكامل طولك، وأضيق من أن تستطيع التقلّب فوقه دون حذر. تنظر مراقباً، بعين هي الآن شبه مفتونة، حوضاً من البلاستيك الزهري اللون فيه ستة جوارب على الأقل.

تظل في حجرتك، دون حركة. تراقب الحوض، الرّف، ركبتيك، نظرتك في المرآة المشقوقة، الكوب، القاطعة

الكهربائية. تصغي إلى جلبة الشارع، قطرة الماء في صنبور مصطبة الدرج، جلبة جارك، تنحنحاته لتنظيف حلقه، الأدراج التي يفتحها ويغلقها، نوبات سعاله، صفير وعاء غلي الماء لديه. تلاحق على السقف، الخط المتعرج لشقٍ رفيع، المسار غير المجدي لذبابة، التقدم الملحوظ تقريباً للظلال.

هذه هي حياتك. هذا ما هو لك. يمكنك أن تجري جرداً دقيقاً لثروتك الهزيلة، بياناً واضحاً لأول ربع قرن في حياتك. عمرك خمسة وعشرون عاماً ولديك تسعة وعشرون سناً، ثلاثة قمصان وثمانية جوارب، بعض كتب لم تعد تقرأها، بعض أسطوانات لم تعد تسمعها. لا ترغب أن تتذكر أمراً آخر، لا أسرتك، لا دراستك، لا غرامياتك، لا أصدقاءك، لا عطلاتك، لا مشاريعك. لقد سافرت ولم تربح شيئاً من سفرياتك. أنت جالس ولا تبغي سوى الانتظار، مجرد الانتظار إلى أن لا يعود هنالك من شئ يُنتظر: فليهبط الليل، فلتدق الساعات، فلتهرب الأيام، فلتمّح الذكريات.

لا تعاود رؤية أصدقائك. لا تفتح بابك. لا تنزل بحثاً عن بريدك. لا تعيد الكتب التي استعرتها من "مكتبة المعهد التربوي". لا تكتب لأهلك.

لا تخرج إلا مع هبوط الليل، مثل الجرذان، والقطط والوحوش. تجرّ قدميك في الشوارع، تنسلّ إلى دور السينما

الصغيرة المبقعة بالأوساخ في الغران بولفار. أحيانـــاً، تمشـــي طيلة الليل. أحياناً، تنام طيلة النهار .

أنت تعيش في فراغ، أنت مسرنم، محـــارة. تختلــف التعريفات حسب الساعات، حسب الأيام، لكن المعنـــــى يظــل واضحاً تقريباً: تشعر أنك معدٌّ قليلاً للحياة، للتأثير، للعمـــل، لا تريد إلا أن تستمر، لا تريد إلا الانتظار والنسيان.

قليلاً ما تقدّر الحياة الحديثة عموماً مثل هذه الحـــالات: من حولك رأيت، في كل وقت، تفضيـــــل العمـــل، المشـــاريع الكبرى، الحماسة: إنسان مشدود إلى الأمام، إنسان عيناه مثبتتان على الأفق، إنسان ينظر بخط مستقيم أمامه. نظرة صافية، ذقن صلبة، مشية واثقة، بطن مشدود إلى الداخل. العزم، المبـــادرة، الضربة الخاطفة، الانتصار، تشق الدرب الفائق الصفاء لحيـــاة في غاية النموذجية، ترتسم الصور المقدسة للصراع في ســـبيل الحياة. الأكاذيب الورعة التي تدغدغ أحلام جميع أولئك الذيـــن يخبطون ويغوصون فـــي الوحـــل، الأوهـــام الضائعـــة لآلاف المتروكين تكملة عدد، أولئك الذين وصلوا بعد فـــوات الأوان،

أولئك الذين وضعوا حقائبهم على الرصيف وجلسوا فوقها يجففون جباههم. على أنك لم تعد بحاجة لاعتذارات، لتحسرات، لمشاعر الحنين. لا تردّ شيئاَ، لا ترفض شيئاً. لقد توقفت عن التقدم، بل إنك ما كنت تتقدم، لا تعاود الانطلاق، لقد وصلت، لا ترى ما يمكنك فعله أبعد: لقد كفاك، لقد كفاك تقريباً، يوم من أيار شديد الحرّ، الترابط غير الموفق لنص كنت قد أضعت خيط المعنى فيه، كوب نسكافه بمذاق أصبح فجأة مرّاً أكثر مما يجب، حوض من البلاستيك الزهري اللون مليء بماء يميل للسواد تطفو فيه ستة جوارب، كي ينكسر شيء ما، يفسد، يتشوه، وكي تظهر في النهار الساطع ــ غير أن النهار لا يكون ساطعاً أبداً في الحجرة الصغيرة في شارع سانت أونوريه ــ حقيقة مخيّبة، وحزينة، مضحكة مثل طاقية حمار، ثقيلة مثل معجم "غافيو": لا ترغب أن تستمر، ولا ان تدافع عن نفسك، ولا أن تهاجم.

حلّ التعب بأصدقائك فما عادوا يقرعون بابك. ما عدت تكثر من المشي في الشوارع التي قد تلتقي بهم فيها. تتحاشى الأسئلة، نظرة ذاك الذي تضعه المصادفة أحياناً في طريقك، ترفض البيرة أو القهوة التي يدعوك إليها. وحدهما، الليل وحجرتك يحميانك: المقعد الخشبي الضيق الذي تظل ممدداً فوقه، السقف الذي تعيد اكتشافه في كل لحظة؛ ليلاً، عندما

تمضي وحيداً في وسط الحشد المتدفق في الغران بولفار، يحدث أنك تكاد تكون كالسعيد بالضوضـــاء والأضـــواء، بالحركـــة، بالنسيان. لا تحتاج للكلام، للإدارة. تمضي مع موج الحشد ذهاباً وإياباً، من الريبوبليك إلـــى المـــادلين، مـــن المـــادلين إلـــى الريبوبيليك.

لست معتاداً على القيام بالتشخيصات ولا لك رغبة فيها. ما يبلبلك، ما يثير انفعالك، ما يخيفك، لكنه أحياناً يهيّجك، ليس الطابع المباغت لتحولك، إنما هو، تحديداً، الشـــعور الغـــامض والشديد الوطأة أنك لا تعيش تحولاً، أن شيئاً لم يتغيّر، أنك كنت هكذا على الدوام، حتى إن لم تعلم ذلـــك إلا اليـــوم: ذاك، فـــي المرآة المشقوقة، ليس وجهك الجديد، إنما الأقنعة هـــي التـــي تهاوت، حرارة حجرتك جعلتها تنصهر، الخمول جعلها تسـيخ. أقنعة الطريق القويم، الأفكار اليقينية الجميلـــة. أثنـــاء خمســـة وعشرين عاماً، ألم تعلم شيئاً ممّا أصبح اليوم الجمود اللامبالي؟ في ما هو بمثابة تاريخك، ألم تشاهد أبداً صدوعـــاً ؟ الأوقـــات الميتة، الانتقالات الفارغة. الرغبة الهاربة والموجعة في التوقف

عن السماع، عن النظر، في ملازمة الصمت والجمود. الأحلام التي لا معنى لها حول العزلة. فاقداً للذاكرة، ضائعاً في "بلاد العميان": شوارع عريضة وخاوية، أضواء باردة، وجوه خرساء قد تنزلق نظرتك عليها. ربما لم يعد يمكن أبداً التأثير فيك.

كما لو، تحت تاريخك الوادع المُطمئِن لطفل عاقل، لتلميذ جيد، لزميل أمين، تحت تلك الإشارات الواضحة، الزائدة الوضوح، للنمو، للنضج ـ شحطات قلم الرصاص على إطار باب دورات المياه، الشهادات، السراويل الطويلة، أولى لفافات التبغ، نار شفرة الحلاقة، الكحول، المفتاح تحت الحصير طلعات السبت مساءً، فضّ البكارة، التعميد بالهواء، التعميد بالنار ـ كان هناك باستمرار خيط آخر، دائم الحضور، ممدود دائماً في البعيد، هو الآن الذي ينسج القماشة الأليفة لحياتك الراجعة، الإطار الخاوي لحياتك المهجورة، ذكرياتٍ تعاود الانبثاق، صوراً تشف عن هذه الحقيقة التي انكشف لثامها، عن هذه الاستقالة التي طال أمد تعليقها، عن هذه الدعوة إلى الهواء، صوراً هامدة، تكاد تكون ميتة، أصبحت، أو تكاد، رمماً

مستحاثة: شارع ريفي، مصاريع مغلقة، ظلال باهتة، ذباب محوّم في قاعة عسكرية، صالة تختفي تحت أغطية، زمادية، طبقات غبار محمولة في شعاع ضوء، حقول جرداء، مدافن أيام الأحد، نزهات السيارة.

رجلاً جالساً على مقعد خشبي ضيق، تحولت، ذات خميس، عصراً، على الركبتين كتاب مفتوح، ذاهل النظر.

لست إلا ظلاً غائم الملامح، نواة صلبة من اللامبالاة، نظرةً محايدة هاربة من النظرات.

أخرس الشفتين، مطفأ العينين، سوف يمكنك من الآن فصاعداً في البحرات، في الألواح البلورية، على الصفيح البّراق للسيارات، تحديد معالم الانعكاسات الهاربة لحياتك المتباطئة.

يدك الغائبة تنزلق على امتداد رف الخشب الأبيض. الماء ينقط في صنبور مصطبة الدرج. جارك نائم. الشخير الواهي لسيارة تاكسي ديزل وهي تتوقف، يؤكد أكثر مما يقطع صمت الشارع. يتغلغل النسيان في ذاكرتك. لم يحدث شيء.لن يحدث شيء بعد اليوم. تشققات السقف ترسم متاهة غير متوقعة.

وكانت تلك الأيام الجوفاء، الحرارة في حجرتك، كما في مرجل، كما في أتون، و الجوارب الستة، أسماك القرش اللّدنــة، الحيتان النائمة، في حوض البلاستيك الزهري اللون. ساعة المنبه التي لم ترن، التي لا ترن، التي لن ترن عند وقت يقظتك. تضـع الكتاب المفتوح إلى جانبك، على المقعد الخشبي. تتمدد. كل شيء ثقل، طنين، خمول. تستسلم منزلقاً. تغرق في النوم.

توجد بداية صورٌ، أليفة أو موسوِسة؛ أوراق لعب منشورةٍ تتناولها مرة بعد مرة، دون توقف، دون التمكن أبداً من ترتيبها كما قد ترغب، مع ذلك الانطباع المنغّص بضرورة إتمام، إنجاح ذلك الترتيب، كما لو كان من ورائه كشف حقيقة جوهرية، لكنها دائماً الورقة نفسها تتناولها وتعيد تناولها، تضعها وتعيد وضعها، تصنّفها وتعيد تصنيفها؛ جماعات تصعد وتنزل، تروح وتجيء، جدران تحيط بك وتبحث فيها عن المخرج السرّي، الزر المخفي الذي سيجعل الجدران تتهاوى،

السقف يتطاير؛ أشكال تتلامح، تهرب، تعود، تختفي، تقـــترب، تمّحي، ألسنة لهب أو نساء ترقص، تماوج ظلال.

فيما بعد، ذكريات لا تعود قادرة على شق طريق لها، براهين لا تعود تبرهن على شيء، باستثناء، ربما، أن مرصداً في أبيردين، في أنفرنس، نجح فعلياً بالتقاط إشارات قادمة من نجوم نائية: فهل المعنيّ مجرة أندروميد أو مجموعـــة غـــول وبيرداخ؟ أم الدرنات التوأمية الأربع؟ الحل المباشر، الواضح، للمشكلة التي لم تكف عن إشغالك: الشاب لا يكون أبداً ســـيّد الكُبّا، ما لم تتخلص من الورقة الزائدة في الترتيب. كلمــــات غير مترابطة حاملة لمعانٍ متشابكة تطوف من حولـــك فـــي حلقة. أي رجل محتجز في أية قلعة من ورق اللعب؟ أي خيط؟ أية شريعة؟

الوضوح والمنطق لا غنى عنهما. التصرف بمنهجيـــة. في لحظة معينة، يجب بأي ثمن التمكن من التوقـــف، التـــأمل، روز الموقف جيداً. فإن كانت بحيرة وسط رأسك، وليس هـــذا بالمقنع فحسب، بل هو طبيعي، علماً أن من غير الممكن تأكيده

دون محاذير، فلا بد لك من زمن ما للوصول إليها. لا يوجد درب، لا يوجد درب على الإطلاق، و، قرب الضفاف، لا بدّ من الانتباه إلى الأعشاب، الدائمة الخطر في مَثل هذا الوقت من السنة. أيضاً لن توجد قوارب، بكل تأكيد، تكاد لا توجد أبداً قوارب، لكن يمكنك العبور سباحة.

فيما بعد، بالطبع لم توجد أبداً بحيرة. على أن النوم أصبح منذ فترة طويلة في مواجهتك، أقرب مما لم يكن عليه أبداً. إنه بمظهره المألوف: الكرة، أو بالأحرى الفقاعة، الفقاعة الكبيرة، الكبيرة جداً، شفافة، بالتأكيد، لكن ليس من البلور، ربما هي بالأحرى من الصابون، لكنه صابون صلب جداً، دون أي دسم على الإطلاق، وهو قليل الهشاشة، أو ربما، بالأحرى، أنه جلد في غاية النعومة، مشدود جداً. جميع هذه السمات موجودة، فلا حاجة كي تتحرى لمعرفة ذلك، هذا عادي، يكفي تعدادها: في الأعلى تتورّد الفقاعة، مقابلك تتقشر، إلى جانبك تحاول بضعف أن تتنفس؛ الباقي يتبع الوسادة التي أنت ملتف عليها

والتي أنت ملتحم بها بفضل الضغط الذي تقوم بــه دون قســر على الحلقة التي يشكلها إبهام وسبّابة يدك اليمنى.

الآن يصبح ذلك أصعب بكثير. أولاً، يبــدأ الوضــوح ينجلي بأن الفقاعة خادعت، ليست كروية على الإطلاق، بل هي بالأحرى سميكة، مغزلية الشكل؛ ثانياً، شفافيتها الموهومــة ذات طابع محدود جداً، ليس أكبر بكثير من شفافية الوســادة؛ ثالثــاً وخاصة، ليست قيد التورّد في الأعلى. كل ما كان فيها مؤكــداً على وجه التقريب، إنما هي التقشّرات التي تكــاثرت بســرعة كبيرة، والتنفس الذي كان ضعيفاً فأصبح طويلاً. ولكن أكثر مــا يثير الاضطراب، حرارة المجموع التي ارتفعت ارتفاعاً سريعاً والتي ما كان لها أن تتأخر بعد في الوصول إلى عتبة حرجــة، وهو ما كانت التسلخات المتزايدة أكثر فأكثر، بكل تأكيد الدليــل المبكر عليه.

ليس في الموقف ما يريح. لقد أخطأت بصبّ اهتمامك على هذه التفاصيل التي لم تكن حتى صحيحة؛ بكل وضوح، كانت تلك من الأفخاخ، والآن، أنت دون أي لبس سجين داخل الوسادة حيث الجو حار جداً ومعتم جداً حتى لتتساءل بشيء من القلق كيف السبيل للخروج. ليست تلك المرة الأولى، لحسن الحظ، التي تجد نفسك فيها في مثل هذا الموقف؛ تعلم أنه يكفيك أن تعثر بنتوء عند الأفق، أو أن تجد خيط ضياء في العتمة، بحيرة، أو موضعاً ندياً تنزلق فيه، بالضبط تشعر باستعدادات مدهشة لديك للانزلاق. لكن، عبثاً كل تفتيشك، لا يوجد أمامك شيء، لا أفق، لا خيط ضياء، لا بُحيرة، لا شيء، مجرد الوسادة، السوداء، السميكة، الخانقة. هذا لا يباغتك، هذا ما كنت تنتظر. تفتش وراءك، و، بالتأكيد، على الفور، تنتبه إلى أنك حتى لم تكن سجيناً حقاً، وأن النوم، طيلة هذا الوقت، أن النوم الحقيقي كان وراءك، لا أمامك، وراءك، بأسهل ما يمكن التعرف عليه ببلاجاته المترامية الرمادية، بأفقه المتجلّد، بسمائه السوداء التي تتلامح في أرجائها خيوط ضوء بيضاء أو رمادية.

تلمحه دفعة واحدة، تتعرف عليه مباشرة، لقد فات الأوان كثيراً للوصول إليه، كما على الدوام؛ سوف تتركه للمرة القادمة.كنت تعلم ذلك أيضاً، أو أنك من المفترض أن تكون قد توقعتــــه: لا يجوز أبداً أن تتقلب من جنب لجنب، خصوصاً بهذه الســـرعة الخاطفة، وإلا ينكسر كل شيء، شذر مذر، تقع وسادتك جـــارّة معها وجنتك، ذراعك، إبهامك، تتأرجح قدماك الواحــــدة تلــو الأخرى: النافذة الصغيرة الرمادية تعود إلى موضعها غير بعيد عنك، الزنزانة العالية تتشكل من جديد وتنغلق، أنــت جـــالس على مقعدك الخشبي الصغير.

فيما بعد، تغادر باريس؛ لا تمضي إلى المغامرة، ترحل عند والديك، في الريف، قرب أو سير. إنه تجمّع ميت قليلاً استقرا فيه بعد تقاعدهما. أمضيت فيه سنوات قليلة طفلاً، بعض العطل الصيفية. بقايا قلعة محصنة تعلو هضبة عند أسفلها انتشرت القرية. يفترض أن مطوّباً من رجال الدين، غير بعيد من هناك، عاش في غار من الممكن زيارته. على الساحة قرب الكنيسة، توجد شجرة يقولون إن عمرها مئات السنين.

تظل هناك أشهراً عديدة، عند تناول الوجبات، تسمع الأخبار، الألعاب الإذاعية. في المساء، منذ الساعة التاسعة. تقرأ أحياناً طيلة الليل. لقد عثرت، في حجرتك، في مستودع المؤونة، في جوف خزائن البياضات، على كتبك في الخامسة عشرة، ألكسندر ديما، جول فيرن، جاك لوندن، وأكداس الروايات البوليسية التي كنت تجلبها في كل إقاماتك السابقة. تعيد قراءتها بعناية، دون أن تفوّت سطراً، كما لو كنت قد نسيتها كلياً، كما لو ما كنت قرأتها حقاً في يوم من الأيام.

تكاد لا تتحدث مع والديك، تكاد لا تراهما إلا في أوقات الوجبات. صباحاً، تلزم الفراش بتعب. تسمعهما يغدوان ويروحان في البيت، يصعدان وينزلان السلم، يسعلان، يفتحان أدراجاً. والدك ينشر خشباً. بائع جوّال يطلق زموره قرب البوابة. كلب ينبح، طيور تغرد، ناقوس الكنيسة يقرع. مضطجعاً على سريرك العالي، ولحاف الريش مرفوع حتى الذقن، تراقب خشبات السقف. عنكبوت دقيق، ذو بطن رمادي أبيض تقريباً، ينسج خيوطه في زاوية خشبة.

تجلس إلى طاولة المطبخ المغطاة بمشمّع. تقدم والدتك إليك كوب قهوة بالحليب، تدفع الخبز نحوك، المربّى، الزبدة. تأكل بصمت. تحدثك عن كليتيها، عن والدك، عن الجيران، عن

القرية. مدام تفنو رهنت مزرعتها مقابل دخل ثابت مدى الحيـاة. كلب عائلة مورو مات. الأعمال في طريق الأتوستراد بدأت.

تنزل إلى القرية لشراء بعض الأغراض لوالدتك، لشـراء التبغ لوالدك، لفائف التبغ لك. لقد فرّ المزارعون مما كانت فيمـا مضى قرية كبيرة. كانت في نهاية خط حديدي، كان هناك كـاتب عدل، سوق خِضار.بقي مركزا استثمارات زراعية لا غير. القرية الآن مأهولة بمتقاعدين وأبناء مدن يحضرون إليها في عطلة نهاية الأسبوع وشهراً كل صيف، فيتضاعف مرتين أو ثلاث مرات عدد سكانها عمّا هي عليه شتاءً.

تسير بمحاذاة البيوت المستصلحة: مصاريع أعيد دهانها بأخضر تفاحي، أزهار زنبق من الحديد المطـروق الملبّـس، قناديل بائعي تحف، حدائق تسلية، أحجار زينـة بيـن النبـات والزهر لا تزورها أية إلهة، جنة محبي الريـف. محـامون، بقالون، موظفون يشذبون أشـجار البقـس، ينظفـون الأرض الرملية، ينفضون مصاطب الزهور، يقدمون الطعام للأسـماك الحمراء. على الساحة تتلاحم الدراجات الخفيفـة، سـكوترات الشباب. المقهى الذي يبيع التبغ مليء.

عصر كل يوم، تنطلق في نزهة. تمضي على الطريق بادئ الأمر، ثمّ، فيما وراء مقلع مهجور، تغوص في عمق الغابة. تلتقط عن الأرض غصناً تشذبه قدر ما تستطيع. تسير بمحاذاة حقول من القمح الناضج، تجتث رؤوس أعشاب متشابكة بضربات قوية غير متوازنة من عصاك. لا تعرف أسماء الأشجار، ولا أسماء الزهور، النباتات، الغيوم. تجلس عند قمة رابية حيث تبدو لك القرية بأكملها: بيت والديك، المنعزل قليلاً، بأسقفه الثلاثة المختلفة الألوان، الكنيسة، القلعة تقريباً على ارتفاع عينيك، الجسر الذي كانت تمر من فوقه في الماضي سكة الحديد، المغسل، البريد. على الطريق الأبيض، في أدنى الأسفل، مثل سفينة كبيرة خارجة من الميناء، تبتعد شاحنة هائلة. فلاح وحيد، في وسط حقله، يوجّه محراثه الذي يجرّه حصان مرّقط.

تطلق طيور صيحاتها، زقزقات، نـــداءات مبحوحـــة، تغريدات مكرّرة. الأشجار الضخمة ترتعش. الطبيعـــة ماثلـــة تدعوك وتحبك. تلوك أعشاباً سرعان ما تعود وتبصقها: المشهد يوحي لك قليلاً، سكينة الحقول لا تحرك انفعالك، صمت الريف لا يثيرك ولا يهدئك. وحدها تفتنك أحياناً، حشرة، حجرة، ورقة تسقط، شجرة: تظل أحياناً ساعات تتطلع إلى شجرة، تصفـــها، تشرّحها: الجذور، الجذع، الأغصان، الأوراق، كل ورقة، كـــل عرق نافر، كل غصن من جديد، واللعب اللانهائي مع الأشـكال اللامبالية التي تطلبها نظرتك المتشوقة أو تثيرها: وجه، مدينة، متاهة أو درب، رايات وخيول تجري. كلما أرهـــف إدراكـــك، تمرّس أكثر فأكثر بالصبر والمرونة، تتفجر الشجرة وتولد مـــن جديد، ألف درجة من درجات اللون الأخضـــــر، ألـــف ورقـــة متماثلة، ورغم ذلك فهي مختلفة. يبدو لك أنه قد يمكنك قضـــاء عمرك أمام شجرة، دون أن تستنفد ما فيها، دون أن تفهمـــها، لأنه ليس عليك أن تفهم شيئاً، لا غير النظر: كل ما يمكنك قوله عن هذه الشجرة، بعد كل شيء، هو إنها شجرة؛ كل ما يمكـــن

لهذه الشجرة قوله لك، هو إنها شجرة، جذر، فجذع، فأغصان، فأوراق. لا يمكن أن تتوقع منها حقيقة أخرى. الشجرة، لا أخلاق لديها تقترحها عليك، ليس لديها رسالة تبوح لك بها. قوّتها، عظمتها، حياتها ـ إن كنت ما تزال ترجو استخلاص معنى ما، شجاعة ما، من هذه الاستعارات القديمة ـ ليست أبداً إلا صوراً، نقاطاً جيدة، متماثلة في لا جدواها مع سكينة الحقول، غدر الماء الهادئ، جسارة الدروب الضيقة التي لا تعلو كثيراً لكنها تمضي بمفردها، بسمة الهضاب التي تنضج فيها العناقيد تحت الشمس.

ولهذا بالذات تفتنك الشجرة، أو تذهلك، أو تريحك، بسبب هذا الوضوح الذي لا شبهة فيه، ولا يمكن أن يكون موضع شبهة، وضوح اللحاء والأغصان، والأوراق. وبسبب هذا، ربما لا تتنزه أبداً مع كلب، لأن الكلب يتطلع إليك، يتوسل إليك، يتحدث إليك. عيناه المغرورقتان بالامتنان، ملامحه ككلب مضروب، قفزاته ككلب مبتهج، تجبرك دون توقف على أن ترفعه تمثالاً بغيضاً للحيوان المدجّن. لا يمكنك أن تظل محايداً في مواجهة كلب، إلا كما أنت في مواجهة إنسان. لكنك لن تتحاور أبداً مع شجرة. لا يمكنك أبداً أن تعيش في مواجهة كلب لأن الكلب، في كل لحظة، يطلب منك أن تؤمن عيشه، أن

تطعمه، أن تدلله، أن تكون إنساناً حياله، أن تكـــون ســيّده، أن تكون الرب الذي يزخم راعداً باسم الكلب فتجعله ينبطح علـــى الفور. ولكن الشجرة لا تطلب منك شيئاً. يمكنك أن تكون "ربّ" الكلاب، "ربّ" القطط، "ربّ" الفقراء، يكفيك رسن، قليـــل مـــن الليونة، قليل من الثروة، لكنك لن تصير أبداً سيد الشجرة. لـــن يمكنك أبداً إلا أن تودّ لو تصبح بدورك شجرة.

ليس لأنك تكره البشر، ولماذا قد تكرههم؟ لماذا قـــد تكره نفسك؟ لو فقط أن ذلك الانتمـــــاء للجنـــس البشـــري لا يصاحبه ذلك الضجيج الذي لا يحتمـــل، لـــو فقـــط أن تلـــك الخطوات القليلة المضحكة المقطوعة في المملكة الحيوانية ما كان من الضروري أن يكون ثمنها ذلك العسر الدائم في هضم الكلمات، المشاريع، الانطلاقات العظيمة! على أنه ثمن بـــاهظ للإبهامين المتقابلين، للانتصاب وقوفاً، للدوران غير المكتمل، للرأس فوق الكتفين: هذا المِرجل، هذا الأتون، هذه المشـــواة، الحياة، هذه المليارات من الأوامر، من نـــداءات التحريـــض، التحذير، استنهاض الهمم، الخيبات، هذا المغطس من الضغوط

التي لا تنتهي، هذه الآلة الأبدية الإنتاج، الطحن، الابتلاع، الانتصار على الأفخاخ، الاستمرار في معاودة الإنتاج ودونما توقف، هذا الرعب الناعم الذي يريد تسيير كل يوم، كل ساعة في وجودك الهزيل!

لم تعش كثيراً، ومع ذلك، ها قد قيل كل شيء، ها قد انتهى. عمرك ليس إلا خمسة وعشرين عاماً، ولكن طريقك ارتسم بأكمله. الأدوار جاهزة، البطاقات اللاصقة: من وعاء طفولتك الأولى إلى الكرسي المتحرك في أيام شيخوختك، كل المقاعد موجودة وتنتظر دورها. مغامراتك موصوفة بدقة حتى أن أعتى ثوراتك لن يطرف لها جفن أحد. عبثاً ما تنزل إلى الشارع وتطيّر قبعات الناس، تغطي رأسك بالقاذورات، تمضي حافي القدمين، تنشر بيانات، تطلق طلقات مسدس لدى مرور أحد المغتصبين، فلا شيء سوف يجدي: سريرك أصبح مرتباً في المصح، صحنك موضوع على طاولة الشعراء الملعونين. "مركب" سكران، معجزة بائسة: الـ "هرار" جاذبية مبتذلة، رحلة منظمة. كل شيء متوقع سلفاً، كل شيء محضر بأدق

التفاصيل: اندفاعات القلب العظيمة، السخرية الباردة، التمـزق، الشعور بالامتلاء، الحنين للاغتراب، المغامرة العظيمة، اليأس. لن تبيع روحك للشيطان، لن تمضي، بصندل في قدميك، لترمي نفسك في بركان "إتنا"، لن تدمّر الأعجوبة السابعة في العـــالم. كل شيء منذ الآن جاهز لموتك:كرة الحديد التي سوف تـــودي بك صهرت منذ فترة طويلة، الباكيات منذ الآن معيّنات للســـير وراء نعشك.

لماذا قد يخطر لك الصعود إلى قمة أعلى الهضاب، ما دمت من بعد ذلك سيتوجب عليك معاودة النزول، و، من بعـد نزولك مباشرة، ما العمل كي لا تمضي حياتك وأنت تـــروي كيف أحسنت تأمين الصعود؟ لماذا قد تتظاهر بـــأنك تعيـــش؟ لماذا قد تتابع؟ ألا تعلم منذ الآن ما سوف يحصل معك؟ ألـــم يسبق لك أن كنت كل ما كان يجب أن تكونه: الابن الجديـــر بأبيك وأمك، الكشاف الصغير الباسل، التلميذ الجيد الذي كـــان يمكن أن يكون أفضل، صديق الطفولة، ابن العم البعيد، المجنّد الجميل، الشاب الفقير؟ بعض مجهودات، بـــل ليـــس بعـــض مجهودات، بعض سنوات أيضاً، وســـوف تصبـــح الموظـــف البسيط، الزميل العزيز. زوج طيب، أب طيب، مواطن طيب، محارب قديم. واحداً بعد واحد، مثل الضفدع، سوف تتســـلق

الحواجز الصغيرة للنجاح الاجتماعي. سوف يمكنك أن تختار، ضمن عينات واسعة ومنوعة، الشخصية الأوفق مع رغباتك، سوف يعاد تفصيلها بعناية على قدّ مقاساتك: هل ستُقلّد أوسمة؟ هل ستكون مثقفاً؟ هل ستكرس ساعات فراغك للفتك على البيانو غير المدوزن بمقطوعات سوناتا لم تؤذك في شيء؟ أو أنك سوف تدخن الغليون في مقعد وثير هزاز وتردد لنفسك أن الحياة فيها الطيب؟

كلا. تُفضل أن تكون القطعة الناقصة في لعبة البزل. تسحب من اللعبة دحاك ودبابيسك. لا تضع أي حظ في جانبك، أية بيضة في أية سلة. تضع المحراث أمام الثيران، ترمي ذراع الفأس ونصله، تبيع جلد الدب، تمضي دون أن تلتفت خلفك.

لن تعير بعد اليوم أذنك للنصائح الطيبة، لن تطلب علاجات. سوف تمضي في طريقك، سوف تتطلع إلى الأشجار، الماء، الأحجار، السماء، وجهك، الغيوم، السقوف، الفراغ.

تظل قرب الشجرة. لا تطلب حتى من صوت الريح في الأوراق أن تصبح عرّافاً.

يأتي المطر، لم تعد تخرج من البيت، تكاد لا تخرج من حجرتك. تقرأ بصوت مرتفع، طيلة النهار، متابعاً بإصبعك أسطر النص، مثل الأطفال، مثل الشيوخ، إلى أن تفقد الكلمات معناها، إلى أن تصبح أبسط جملة متعرجة، سديمية. يحل المساء. لا تشعل الضوء وتظل هامداً، جالساً إلى الطاولة الصغيرة قرب النافذة، الكتاب بين يديك، وقد توقفت عن القراءة، مصغياً بالكاد إلى جلبة البيت، طقطقة أعمدة السقف، الألواح، والدك الذي يسعل، إطارات الفونت التي تعاد إلى موضعها على طبّاخ الحطب، صوت المطر في مصرف التوتياء، المرور البعيد جداً لسيارة على الطريق، صوت نفير باص الساعة السابعة عند المنعطف قرب الرابية.

لقد رحل المصطافون. أغلقت بيوت الريف. عندما تجتاز القرية، تنبح كلاب قليلة لدى مرورك. مزق إعلانات صفراء، في ساحة الكنيسة، بجانب دار البلدية، البريد، المغسل، ما تزال تدعو إلى مزادات، إلى حفلات راقصة، إلى أعياد مضى زمنها.

تعود إلى النزهة مرة أخرى. تمضي على الدروب ذاتها. تجتاز حقولاً محروثة يعلق منها على حذائك نعلان سميكان من الطين. تغوص قدماك في أوحال الدروب الريفية. السماء رمادية. تشعر بالبرد رغم سترتك المبطنة، حذائك، قفازك، تحاول بحركة غير رشيقة إشعال لفافة.

تقوم بنزهات أبعد تقودك إلى قرى أخرى، عبر الحقول والأحراش. تجلس إلى الطاولة الخشبية المديدة فـي بقاليـة ـ مشرب أنت زبونها الوحيد. تقدم إليك قهوة لا طعم لها. ذبـاب بالعشرات عالق على الورق اللاصق المتدلـي حلزونيـاً مـن الأباجورة المعدنية المطلية بالمينا. قُطّ لا مبالٍ يتدفأ قرب مدفأة الفونت. تتطلع إلى المعلبات، رزم المنظفات، الصداري، دفـاتر التلاميذ، الصحف التي أصبحت عتيقة، البطاقات البريديـة ذات اللون الزهري الفاتح حيث يغني شعراً جنود نضرون العواطف الجميلة التي تلهمهم إياها خطيبة شقراء، مواعيـد السـيارات، أرقام المراهنات الثلاثية على الجياد، نتيجة مباريات الأحد.

عصائب طيور تمر في كبد السماء. على قناة اليـون، قارب شحن طويل، هيكله بلون أزرق معدني، ينزلق، يسـحبه جوادان ضخمان رماديا اللون. تؤوب ماشياً على امتداد الطريق

العام، في الليل، متقاطعاً ومتجاوزاً بسيارات هـــادرة، مبـــهور العينين بالمصابيح التي، من أسفل الجانبين، تبدو لبرهة وكأنـــها تريد إضاءة السماء قبل الانقضاض عليك.

ترجع إلى باريس وتلتقي مجدداً حجرتك، صحنك، قطرة الماء، الجمهور، الشوارع، الجسور، السقف، حوض البلاستيك الزهري اللون، المقعد الخشبي الضيق، المرآة المشقوقة حيث تنعكس الملامح التي تؤلف وجهك.

حجرتك مركز الكون. هـذا الجحـر، هـذه الحجـرة الصغيرة تحت السقف التي تحتفظ إلى الأبـد برائحتـك، هـذا السرير الذي تندس فيه بمفردك، هذا الرف، هذا البساط، هـذا السقف الذي عددت مائة ألف مرة تشققاته، تقشـراته، لُطخـه، تضاريسه، هذه المغسلة المتناهية الصغر كأنـها لدميـة، هـذا الحوض، هذه النافذة، هذا الورق الجداري الذي تعرف فيه كـل زهرة، كل ساق، كل تشابك، وأنت الوحيد الذي يمكنه أن يؤكد، رغم الكمال المتناهي تقريباً في طباعتها، أنها لا تتشـابه أبـداً تشابهاً كاملاً، هذه الصحف التي قرأتها المرة بعد المرة، والتـي سوف تعيد قراءتها المرة بعد المرة، هذه المرآة المشقوقة التـي لم تعكس أبداً سوى وجهك الموزع إلـى ثلاثـة أقسـام غـير متساوية، متراكبة قليلاً فوق بعضها، تكاد العادة تسمح بتجاهلها، متناسياً بداية عيناً جبهية، الأنف المشـطور، الفـم المتشـنج باستمرار، كي لا تلتقط من بَعدُ سوى خط بشكل Y مثل علامـة منسية تقريباً، ممحوّة، لجرح قديم، ضربة سيف أو لسعة سوط، هذه الكتب المرتبة، هذا السّخان ذي الشفرات، هـذه الحقيبـة

الصغيرة المحتوية على البيك ــ آب والمغطاة بطبقة لامعــــة: هكذا تبدأ وتنتهي مملكتك، التي يحيط بها في حلقات مركزيـــة، الأصدقاء والأعداء، وأصوات الجلبة الحاضرة دومـــاً والتـــي تربطك وحدها لا غير بالعالم، جلبة جارك، تنحنحاته لتنظيـــف حلقه، الأدراج التي يفتحها والتي يغلقها، نوبات سعاله، صفـير وعاء غلي الماء لديه، ضجيج شارع سانت أونوريه، الغمغمـــة المتواصلة للمدينة. من بعيد جداً، صفارة سيارة إطفـــاء تبـدو كأنها موجهة إليك، تبتعد، تعود. عند تقـــاطع شـــارع ســـانت أونوريه مع شارع البيراميد، التناوب المنتظم لضربات الكوابح، الوقفات، معاودة الانطلاق، تغيير السرعات، يوقّع الزمن تقريباً بدقة ويقين القطرة التي لا تمل، وناقوس سان روك.

ساعتك المنبه، منذ فترة طويلة، تشـــير إلـــى الخامســـة والربع، لقد توقفتْ، أثناء غيابك، دون شك، وأهملـــتَ أن تعيـــد تشغيلها. في صمت حجرتك، لم يعد الزمن يتغلغل، إنـــه فيمـــا حولك، مغطس دائم، فهو أكثر حضوراً، هيمنة، من عقارب منبه قد يمكنك ألا تنظر إليه، ولكنه مع ذلك متشنج قليـــلاً، مغلـــوط، مشبوه إلى حد ما: الزمن يمضي، لكنك لا تعرف أبداً كم الساعة، ناقوس سان روك لا يميز الربع، ولا النصف، ولا الثلاثة أرباع، تناوب أضواء المرور عند تقاطع شارع سانت أونوريه مع شارع

البيراميد لا يتم في كل دقيقة، قطرة الماء لا تسقط في كل ثانية.الساعة العاشرة، أو ربما الحادية عشرة، إذ كيف تتأكد أنك سمعت جيداً، الوقت متأخر، الوقت مبكر، الضوء يبزغ، الظلام يحل، أصوات الضجيج لا تكف أبداً بالكامل، الوقت لا يتوقف أبداً كلياً، حتى لو لم يعد ممكن الإدراك: ثغرة متناهية الصغر في جدار الصمت، غمغمة متباطئة، منسية، للقطرة بعد القطرة، تقريباً مختلطة مع خفقات قلبك.

حجرتك أجمل الجزر المهجورة، وباريس صحراء لم يعبرها أبداً أحد. لست بحاجة لأي شيء آخر سوى هذا الهدوء، سوى هذا النوم، سوى هذا الصمت، سوى هذا الخمول. فلتبدأ الأيام ولتنته الأيام، فليجر الزمن، فلينغلق فمك، فلتسترخ بالكامل عضلات رقبتك، فكك، ذقنك، ولتكن وحدها ارتفاعات قفصك الصدري، خفقات قلبك الشاهد الباقي على استمرارك الصابر في البقاء على قيد الحياة.

لا رغبة بعد اليوم في شيء. انتظار إلى أن لا يعود ما يُنتظر. جرّ قدمين، نوم. استسلام للجمهور الحاشد. عبر الشوارع. ملاحقة قنوات تصريف الماء، الأسيجة الحديدية، الماء على امتداد ضفتي النهر. مساشاة كورنيش النهر، السير بمحاذاة الجدران. تضييع وقت. تخلّص من كل مشروع، من كل تململ. لا رغبة، لا حنق، لا تمرد.

سوف تكون أمامك، على مر الزمن، حياة ساكنة، دون أزمة، دون اضطراب: لا خشونة، لا فقدان توازن. دقيقة بعد دقيقة، ساعة بعد ساعة، يوم بعد يوم، فصلاً بعد فصل، شيء ما على وشك أن يبدأ ولن تكون له أبداً نهاية: حياتك النامية، حياتك الملغاة.

هنا، تتعلم الاستمرار. أحياناً، سيدَ الزمن، سيدَ العـــــام، عنكبوتاً صغيراً متنبهاً لمركز نسيجك، تسيطر على باريس:تحكم الشمال بجادة الأوبرا، الجنوب بشبابيك تذاكر اللوفر، الشـــرق والغرب بشارع سانت أونوريه.

أحياناً، تجرب حلّ الوجه الغامض الذي ربما يخططـــه التماوج المعقد لظلال وشقوق على مقطع من السقف، عينـــان وأنف، أم أنف وفم، جبين يرتسم دون شعر يؤطـــره، أم تـــرى الرسم الدقيق لحافة أذن، بداية كتف وعنق.

توجد ألف طريقة لقتل الوقت، وكل واحدة مختلفة عن الأخرى، لكنها جميعاً متساوية الشأن، ألف وسيلة لعدم انتظار أي شيء، ألف لعبة يمكنك أن تبتكرها وتهجرها على الفور.

عليك أن تتعلم كل شيء، كل ما لا يُعلّم: العزلة، اللامبالاة، الصبر، الصمت. يجب عليك أن تتخلص من كل عادة: الذهاب لملاقاة من لازمتهم لفترة طويلة، تناول وجباتك، قهوتك في الموضع الذي حجزه لك آخرون، الموضع الذي حفظوه لك أحياناً، التهافت في التواطئ للصداقات التي تقاوم باستمرار للبقاء على قيد الحياة، في الضغينة الانتهازية والخسيسة للعلاقات التي تتفكك عراها.

أنت وحيد، ولأنك وحيد، يجب ألا تنظر أبداً إلى الساعة، يجب ألا تحصي أبداً الدقائق. ما عاد يلزمك أن تفتح صندوق بريدك بارتعاش محموم، ما عاد يلزمك الشعور بالإحباط إذا لم تجد فيه سوى استمارة تدعوك للحصول بمبلغ زهيد، سبعين فرنكاً، على حلويات منقوشة بأحرفك الأولى، أو على كتاب كنوز الفن الغربي.

يلزمك نسيان الرجاء، مباشرة المشاريع، النجاح، الاجتهاد. تستسلم للتيار، وهذا يكاد يكون سهلاً عليك. تتجنب الدروب التي طالما سلكتها.تدع الزمن الجاري يمحو ذاكرة الوجوه، أرقام الهواتف، العناوين، الابتسامات، الأصوات.

تنسى أنك تعلمت النسيان، أنك ألزمت نفسك، ذات يوم، بالنسيان. تجر قدميك في شارع سان ميشيل وما عدت تتعــرف على شيء، ناسياً الواجهات، منسياً من موج الطلبــة الصــاعد الهابط. ما عدت تدخل إلى المقاهي، ما عدت تطوف فيها بهيئة مشغولة، متغلغلاً حتى القاعات الخلفية بحثاً عمّن لم تعد تعرف من يكون. ما عدت تبحث عن أحد في الطوابير التي تــترادف كل ساعتين أمام دور السينما السبع في شارع شــامبليون. مــا عدت تتيه مثل روح معذبة في الساحة الكبرى للسوربون، مــا عدت تذرع الممرات الطويلة كي تصل إلى أبواب الخروج مــن القاعات، ما عدت تتصيد التحيات، الابتسامات، إشارات الامتنان في دار المكتبة.

أنت وحيد. تتعلم أن تمشي كرجل وحيد، أن تتسكع، أن تجر قدميك، أن ترى دون أن تنظر، أن تنظر دون أن تــرى. تتعلم الشفافية، الهمود، عدم الوجود. تتعلم أن تكون طيفــاً، وأن تنظر إلى الناس كما لو كانوا حجارة. تتعلم أن تظل جالساً، أن تظل مضطجعاً، أن تظل واقفاً. تتعلم أن تمضغ كل لقمــة، أن

تجد الطعم الموات نفسه في كل جزء من الطعام الذي تدفعه في فمك. تتعلم أن تنظر إلى اللوحات المنشورة في معارض الرسم كما لو كانت أطراف جدران، سقوفاً، وإلى الجدران، والسقوف، كما لو كانت لوحات تتابع فيها دون كلل عشرات، آلاف الدروب المتجددة باستمرار، متاهات لا ترحم، نصاً قد لا يستطيع أحد فك طلاسمه، وجوهاً قيد التحلل.

تتغلغل في إيل سان لويس، تأخذ شارع فوجيرار، تمضي نحو بيرير، نحو شاتولاندون. تمشي ببطء، ترجع على أعقابك، تمسح بنظرك الواجهات. معروضات باعة أدوات وعقاقير، كهربائيون، باعة مستلزمات الخياطة، باعة تحف. تمضي فتجلس على إفريز جسر لويس فيليب وتراقب اندفاع وانحسار تكسر الماء تحت القناطر، الانهدام المخروطي الذي يفرغ ويمتلئ دون انقطاع أمام الدعائم. مراكب مائية، عوّامات شحن تعبر في البعيد، مثيرة الاضطراب بعد لأي في ألعاب الماء المرتطم بالأعمدة. على امتداد الكورنيش، يجلس صيادون،

دون حراك، متابعين بأنظارهم الحَيَدان القسري للمراكب المهتزة فوق الماء.

من رصيف مقهى، جالساً في مواجهة نصف كأس من البيرة أو فنجان قهوة، تراقب الشارع. سيارات خصوصية، سيارات عامة، شاحنات صغيرة، باصات، دراجات نارية، دراجات خفيفة تعبر، في زمر متراصة تفصل بينها استراحات نادرة وقصيرة: الانعكاس البعيد للإشارات الضوئية التي تنظم السير. على الرصيفين يتدفق التياران المتواصلان من المارة، بل هما أشد انثيالاً من الماء. رجلان حاملان للنوع نفسه من المصنف الرسمي ذي الجلد التقليد يتقاطعان بالخطوة المتعبة ذاتها؛ أم وابنتها، أولاد، نساء مسنّات محمّلات بسلال شبكية، عسكري، رجل تنوء يداه بحقيبتين ثقيلتين، ثم آخرون، يحملون رزماً، صحفاً، لهم غلايين، شمسيات، كلاب، كروش، قبعات، عربات أطفال، أزياء موحدة، منهم من يركض تقريباً، منهم من يجر قدميه، متوقفين قرب الواجهات، متبادلين التحية، متفارقين، متسابقين، متقاطعين، شيوخاً وشباباً، رجالاً ونساء، سعداء

وتعساء. مجموعات لا تني تتفكك وتتشكل مجدداً في ازدحامها قرب مواقف الباصات. وكيل دعاية يوزع بيانات. امرأة ترفع يدها عبثاً بحركات ملهوفة للسيارات العابرة. صوت صفارة سيارة إطفاء أو شرطة نجدة يدفّ نحوك وهو يزداد تضخماً.

يمرّ فنيون لتصليح السيارات بضوضاء سريعة، ما المهمة الطارئة التي دُعوا إليها؟ لا تعلم القوانين التي تجعل هؤلاء الناس يتجمعون وهم لا يعرف بعضهم بعضاً، وأنت لا تعرفهم، في هذا الشارع الذي تحضر إليه للمرة الأولى في حياتك، والذي لا عمل لك فيه، إلا ما كان من التطلع إلى هذا الجمهور الذي يروح ويجيء، يندفع مسرعاً، يتوقف: تلك الأقدام على الأرصفة، تلك الدواليب على إسفلت الشارع، تُرى ما عملها جميعاً؟ إلى أين يمضون جميعاً؟ من يطلبهم؟ من يجعلهم يعودون؟ أية قوة أو أي سر غامض من وراء تناوب وضع القدم اليمنى ومن بعدها القدم اليسرى على الرصيف، علماً أن ذلك يتم بتنسيق قد يصعب إيجاد ما هو أكثر فاعلية؟ آلاف الحركات اللانفع فيها تجتمع في اللحظة نفسها داخل حقل نظرك الضيق، المحايد تقريباً. يمدون في الوقت نفسه أيديهم اليمنى و يتصافحون كما لو كانوا يريدون طحن الأيادي، يتبادلون بأفواههم رسائل تبدو ظاهرياً ذات معنى، يديرون بتشنج في

جميع الاتجاهات خدودهم، أنوفهم، حواجبهم، شفاههم، أيديهم، مؤكدين على أحاديثهم بإيماءات تعبيرية؛ يخرجون دفاتر مواعيدهم، يسبق بعضهم بعضاً، يسلم بعضهم على بعض، يتلاسن بعضهم مع بعض، يبارك بعضهم لبعض، يدفع بعضهم بعضاً؛يمضون في طريقهم دون أن يروك، ومع ذلك، فأنت على بعد سنتمرات منهم، جالسٌ على رصيف مقهى، ولا تكف عن مراقبتهم.

تجر قدميك. تتخيل تصنيفاً للشوارع، للأحياء، للعمارات: الأحياء المجنونة، الأحياء الميتة، الشوارع ــ الأسواق، الشوارع ــ المهاجع، الشوارع ــ المقبرة، الواجهات الجرداء، الواجهات المتآكلة، الواجهات الصدئة، الواجهات المقنّعة.

تسير بمحاذاة حدائق الساحات، يمر بقربك الأطفال الذين يركضون ساحبين مسطرة حديدية أو خشبية تنزلق على قضبان السياج. تجلس على مقاعد خشبية خضراء ذات قوائم من الحديد المصبوب منحوتة على شكل قوائم الأسود. حرّاس

مسنون معلولون يتجادلون مع مربيات من عمر مختلف. بطرف حذائك، ترسم على الأرض القليلة الرمل دوائر، مربعات، عيناً، أحرفك الأولى.

تكتشف شوارع لا تمر فيها أبداً أية سيارة، شوارع يبدو أن لا أحد تقريباً يقطن فيها، لا مخزن فيها سوى دكان شبحي، خياطة نسائية مع واجهتها المزينة بستائر شفافة حيث يبدو وكأنما قد استمر عبر الزمن عرض التمثال الشاحب نفسه وقد غيرت الشمس لونه، الأزرار الغريبة نفسها، رسوم الأزياء نفسها التي تحمل مع ذلك تاريخ السنة الجارية، أو منجد يزكّي نوابضه، أقدام السرير الكروية، بشكل نواة الزيتون، بشكل مغزلي، مختلف ما لديه من نسيج الشعر و الكتان، أو إسكافي في زاوية مخفية تخدمه كحانوت صغير، بابه ستارة مصنوعة من سدادات بلاستيكية مسطحة من جميع الألوان مشبوكة إلى بعضها بخيطان نايلون.

تكتشف الشوارع ـ المعابر: معبر شوازول، معبر بانوراما، معبر جوفروا، معبر فرود، وتجارها للأزياء المخفضة الثمن، للغلايين، الجواهر المزيفة، الطوابع، ماسحو الأحذية، محلات السندويش، تقرأ واحدة بعد أخرى، اللوحات الحائل لونها المنشورة في واجهة خطّاط: الدكتور رفاييل

كوربيليبه، أمراض الفم والأسنان، مجاز من كلية الطب في باريس، لا يستقبل إلا بموعد سابق، مارسيل ـ إميل برناخ، حائز على S.A.R.I . كل شيء عن السجاد، مسيو ومدام سيرج فالين، 11 شارع لاغارد، 2140735؛ اجتماع نادي صداقة الطلاب القدامى في مدرسة جوفروا سانت هيلير، الوجبة: "أطايب" البحر على مهاد الجليد، حساء "برغور" باللآلئ السود، "حسناء" البحيرة الفضية.

في حدائق اللوكسمبورغ، تراقب المتقاعدين لاعبي البريدج، أو كرة البيلوت، أو التاروت. على مقعد غير بعيد عنك، عجوز محنط، هامد، مضموم القدمين، مسنداً ذقنه على أكرة عكازه الذي يشد عليه بيديه، يسدد نظراته إلى الأمام في الفراغ، خلال ساعات. تراقبه بإعجاب. تفتش عن سره، عن ضعفه. لكنه يبدو منيع التحصين. لا بد أنه أصم مثل دلو، نصف أعمى، وبالأحرى مشلول. لكن حتى اللعاب لا يسيل من فمه، لا يحرك شفتيه، يرمش أو يكاد. تدور الشمس من حوله: ربما يقظته الوحيدة محصورة في ملاحقة تحوّل ظله؛ لا بد أن

لديه نقاط علاّم مرسومة منذ أمد بعيد؛ جنونه، إذا كان مجنوناً، أنه ربما يعتبر نفسه ساعة شمسية. يشبه التمثال، لكنه يتميز عن التماثيل بقدرته على النهوض والمشي، إذا رغب.يشبه أيضاً الكائن الإنساني، رغم رأسه الذي هو بالأحرى رأس عصفور، سرواله الذي يصعد إلى عظم القص، ربطة عنقه التي تظهره كشاعر مدرسة ابتدائية، لكنه يتميز عن باقي الكائنات الإنسانية بقدرته على المكوث هامداً كتمثال، خلال ساعات وساعات، دون أي جهد ظاهر. قد تود أن تصير إلى ما هو عليه، لكن، وربما أن هذا من تأثير فتوتك القصوى داخل الشوق إلى الشيخوخة، تتأزم أعصابك بأسرع مما ينبغي: رغماً عنك، تتحرك قدمك على الرمل، تزوغ نظرتك، تتشابك أصابعك وتنفك دون توقف.

ما تزال تمشي، لا على التعيين، تضيع، تدور في حلقة دائرية. تحدد لنفسك أحياناً أهدافاً مضحكة: دومينيل، كلينيانكور، شارع غوفيون سان سير، متحف بوستال.تدخل إلى

مكتبات وتقلب صفحات دون أن تقرأها. تدخل إلـــى معـــارض رسم وتطوف فيها، بكل تأن، متوقفاً أمام كـــل لوحـــة، مـــائلاً برأسك يميناً، طارفاً بعينيك، مقترباً لتقرأ العنوان، أو التـــاريخ، أو اسم الرسام، متراجعاً لترى أفضل. تترك لـــــدى خروجـــك توقيعاً فخماً غير مقروء مع عنوان مغلوط.

تجلس في نهاية مقهى، تقرأ صحيفة اللوموند ســـطراً سطراً، دون تفويت شيء، إنه تدريب ممتـــاز. تقـــرأ عنـــاوين الصفحة الأولى، باب "من يوم ليوم"، النشرة الأجنبية، الأخبار المنّوعة في الصفحة الأخيرة، الإعلانات الصغـــيرة: عـــروض عمل، طلبات عمل، التمثيليات، الدعايات التجارية، الأمـــــلاك، العقارات، الأراضي، الشقق (بيع)، شقق (قيد الإنشاء)، شـــــقق (شراء)، مكاتب تجارية، أجارات منوعة، أموال تجارة، رؤوس أموال، جمعيات، محاضرات ودروس، رهونات مدى الحيــــاة، سيارات، حيوانات، مزادات، منوعات، الاستقبالات، الـــولادات الخطوبات، الزيجات، الوفّيات، التشكرات، المبيعات في فنـــدق

دروو، الزيارات والمحاضرات، مناقشات الأطروحات الجامعية، الكلمات المتقاطعة التي تحلها تقريباً ذهنياً (ليس كاثوليكياً عند تعميده: الخمر؛ التعريف بالموت: أل التعريف؛ لا ينفصل عن بعضه عند الخفق: البيض)؛ التنبؤات الجوية؛ برامج الإذاعة، التلفزيون، المسارح ودور السينما، حال البورصة؛ الصفحات السياحية، الاجتماعية، الاقتصادية، الغذائية، الأدبية، الرياضية، العلمية، الدرامية، الجامعية، الطبية، النسائية، الدينية، التربوية، الإقليمية، الجوية، العمرانية، البحرية، القضائية، النقابية؛ السياسة العالمية، الأخبار الأجنبية، الأخبار السريعة، الدراسات الكبرى التي تمتد على ثلاثة أو أربعة أعداد، الملحقات المخصصة لبلد ما، لمنطقة ما، لمنتج ما، الأبواب الدعائية.

خمسمائة، ألف خبر مرّ تحت ناظريك المدققين جداً والمتنبهين جداً حتى أنك أخذت علماً بعدد نسخ العدد، ودققت، مرة إضافية، أنه قد طبعه عمال منظمون في نقابات وأشرف عليه كل من الـ BVP والـ OJD . ولكن ذاكرتك راعت ألا تحفظ أي خبر: لقد قرأت بعدم اهتمام متساوٍ أن بونت ــ أ ــ موسون كان ضعيفاً، الفولاذ في تراجع، نيويورك مدعومة، أن من الواجب الوثوق بخبرة أقدم بنك للقروض العقارية في فرنسا

وبشبكة من الاختصاصيين، أن هناك ثلاثة مليارات قيمة خسائر في فلوريدا بسبب مرور إعصار بربارة، أن جان بول ولوقا فخوران بأن يعلنا عن ولادة شقيقتهما الصغيرة لوسي: قراءة اللوموند، ما هي إلا خسارة، أو ربح ساعة، ساعتين؛ هي أن تقيس، مرة إضافية إلى أي مدى كل أمر سيّان لديك. يجب على التراتبات، الأفضليات أن تتهاوى. ما زال بإمكانك الاندهاش من أن اجتماع، وفق مبادئ هي في النهاية بسيطة جداً، حوالي ثلاثين من الإشارات الطباعية قادر على أن يخلق، كل يوم، آلاف الأخبار تلك. لكن لماذا تجعل فيها مرعاك، لماذا تفك طلاسمها؟ المهم لك هو مجرد تمضية الوقت وألا يمّسك أي شيء: عيناك تقرآن السطور، برصانة، واحداً بعد الآخر.

في مواجهة العالم، ليس اللامبالي متجاهلاً ولا معادياً. ليست غايتك استعادة الأفراح السليمة للأمية، بل، بالقراءة، عدم إعطاء أي امتياز لقراءاتك. ليست غايتك أن تمضي عارياً كلياً، بل أن تكون لابساً دون أن يستدعي هذا بالضرورة البحث

أو الإهمال؛ ليست غايتك الموت جوعاً، بــل مجــرد تنــاول الغذاء. لا أنك تريد بالضبط أداء هذه الأفعال بكل بــراءة، لأن البراءة كلمة بعيدة القوة: فقط، ببساطة، إن كــان لــهذه الــ "ببساطة" أي معنى ممكن، بل أن تتركها فــي أرض محــايدة، واضحة، مجردة من كل قيمة، وليســت، خصوصــاً ليســت، وظيفية، لأن الوظيفي من أسوأ القيم، الأكثر ريــاءً، الأكــثر إحراجاً، لكنه جليّ، واقعي، غير منقوص؛ فليمتنــع قــول أي شيء سوى: تقرأ، ترتدي ثيابك، تأكل، تنام، تمشي، إنها أفعال، حركات، لكنها ليست براهين، ليست عملــة قابلــة للمبادلــة: لباسك، غذاؤك، قراءاتك لن تتحدث بعد اليوم بدلاً عنــك، لــن تلعب معها بعد اليوم لعبة الإرهاف. لن تعهد إليــها بالمهمــة المنهكة، المستحيلة، المميتة، مهمة تمثيلك.

عندما تأكل، من الآن فصاعداً، فــي مطعــم "بوتيــت سورس"، أو في الــ "ببير"، أو عند "روجيه لافريت" فهذا إلــى حد ما ما يسمّيه علماء النفس و الفيزولوجيا "تناول الغــذاء" :

تبتلع، مرة أو مرتين يومياً، نادراً أكثر من مرتين، مركّباً يمكن بدقة حساب ما فيه من بروتيدات وغليسيدات، بشكل قطعة لحم عجل مشوية، شرائح من البطاطا مقلية بالزيت المغلي، كأس من النبيذ الأحمر. إنها قطعة ستيك، أحياناً يسمونها بيف ـ ستيك، أو حتى بيستيك، لكنها قطعاً ليست فتيلة، بوم فريت، لا يمكن لأحد أن يسميها بوم باي، كأس من النبيذ الأحمر لن يفكر أحد بتعديل اسمه ولا حتى الانتقاص من تفوقه النوعي. على أن معدتك لم تعد تميز، إن كانت ميزت في يوم من الأيام، لا ولا سقف فمك. كانت الكلمات أشدّ مقاومة: فلزمك بعض الوقت كي يكف اللحم عن أن يكون رقيقاً، قاسياً، كثير الألياف، البطاطا المقلية عن أن تكون كثيرة الزيت ورخوة، الخمر لزجاً أو محمضاً، هذه النعوت البليغة في الحط من قيمة ما نصفه، الحاملة بداية لمعان حزينة، المذكرة بوجبات معدة للفقراء، بطعام للمشردين الكلوشار، بالحساء الشعبي، بأعياد المعارض في الضواحي، كي تفقد شيئاً فشيئاً قوامها، وكي تكف كلمات، الحزن، الفقر، العوز، الحاجة، الخجل المرتبطة به لا محال – ذلك الدهن المتحول إلى بطاطا مقلية، تلك القساوة المتحولة إلى لحم، تلك الحموضة المتحولة إلى نبيذ – عن أن تصدمك، عن أن تصمك، وكي تكف في الجهة المعاكسة أيضاً عن أن تقنعك

بعلامات النبل، نعوت القفا المقابل بالضبط، الوفــرة، المأدبــة العامرة، الاحتفال: السماكة المشبعة بالدم والطراوة لـــ" قطع " العجل الفاخرة، الفتائل اللينة، الشرحات المحمرة، " المقرمشات " المذهبة.لم تعد بعد اليوم أية قوة مقدسة، أي رحيق إلهي يملأ صحنك وكأسك. لا آهة تعجب وإعجاب ترافق وجباتك. تــأكل اللحم والبطاطا المقلية، تشرب النبيذ. المسافة التــي يصعــب تجاوزها حداً فاصلاً بين فتيلة عجل فاييت عن باقي القطع التي، تقريباً كل يوم، تطلبها، فور دخولك، من خادم مطعــم بوتيــت سورس، لم تعد لها سِلطة عليك.

سيّان كان الطقس صاحياً، سيّان كان مكفهراً، هطل المطر أم أشرقت الشمس، هبت الريح قوية أم سكنت فلا ورقة تتحرك في شجرة، أطفأ الفجر القناديل في الشوارع، أعاد الغروب إضاءتها، سيّان ضعت وسط الجمهور أم كنت وحيداً في ساحة مهجورة، فما زلت تمشي، ما زلت تجر قدميك.

تبتكر جولات معقدة، شائكة الموانع فتجبرك على التفاتات طويلة. تمضي لرؤية المعالم الأثرية. تجري إحصاء للكنائس، لتماثيل الفرسان فوق الأحصنة، للمباول العمومية،

للمطاعم الروسية. تمضي لرؤية الأعمال الكبرى لاستصلاح ضفتي النهر، قرب المداخل، الشوارع المبقورة الجوف الشبيهة بحقول محروثة، قنوات الماء، الأبنية التي تسوّى بها الأرض.

تؤوب إلى حجرتك وتلقي مرساتك مرابطاً على مقعدك الخشبي الضيق جداً. تنام مفتوح العينين على اتساعهما، مثل المعتوهين. تُحصي، تنظم شقوق السقف. اجتماع اللطخ والظلال وتنويعات تكييف وتوجيه نظرتك ينتج عنها دون جهد، ببطء، عشرات من الأشكال المولودة لتوها، من الترتيبات السريعة التلاشي التي لا تستطيع الإمساك بها إلا للحظة، مستوقفاً إياها بتسمية: كرمة، فيروس، مدينة، قرية، وجه، قبل أن تتفكك ليعود كل شيء من جديد: ظهور حركة، لفتة، طيف هارب، الشروع بعلامة مفرّغة تدعها تكبر، مصادفة تتوضح: عين تتسمّر عليك، رجل نائم، دوامة ماء، تأرجح أشرعة خفيف، طرف شجرة، غصن متفجر، محفوظ، يعاد تشكيله، من داخله ينبثق منجلياً نقطة بعد نقطة بداية جديدة لوجه، مختلف أو

يكاد عن الوجه الذي سبقه منذ لحظة، داكن أكثر ربما، أو أكثر تيقظاً، وجه معلّق تفتش فيه دون أن تراها عن الأذنين، العينين، العنق، جبين، دون أن تمسك، دون أن تجد، لتفقده على الفور، إلا أثر ابتسامة مبهمة، ظل فتحة أنف تصبح ربما أكثر امتداداً بأثر باقٍ مشين أو مجيد، من يدري؟ـ لندبة.

أغلب الأحيان، تلعب بالورق وحيداً. توزع الورق على أنه بريدج، تجرب أن تحل المسائل المنشورة كلّ أسبوع في صحيفة اللوموند، لكنك لاعب محدود وضرباتك تفتقر إلى الأناقة: لا علم لديك إطلاقاً بفتح الورق، بالتخلص من الورق الزائد، بنقل اللعب. تخيلت ذات يوم توزيعاً استثنائياً لا يكون في يد فريق من اللاعبين سوى ورقتين هامتين، آس وشاب، ويستطيع أن يربح، في مواجهة كل دفاع، فتح كامل، بفضل توزيع فائق التوفيق يفتقر فيه أحد اللاعبين بالكامل إلى أحد الألوان؛ بعد ذلك، مع إبراز هذه المشكلة، وبملاحظة أن الفتح

المذكور زاد من تناقص أهميته تعذر الإعلان عنه وأن القيام به خال من كل براعة، لم تتوقع شيئاً يذكر من البريدج.

أصبحت أسير الأفراح الساحرة للعبة النجاح. تنشر على مقعدك الخشبي أربعة صفوف في كل صف ثلاث عشرة ورقة، تسحب منها الآسات الأربعة. لعبتك مبدؤها ترتيب الثماني والأربعين ورقة المتبقية باستخدام الخانات الفارغة بعد سحب الآسات؛ إذا كانت إحدى هذه الخانات في بداية الصف، يكون لزاماً عليك أن تضع ورقة اثنين؛ أما إذا كانت من بعد، لنفترض، ستة، يكون بإمكانك أن تضيف إليها سبعة من النوع نفسه، إلى السبعة، ثمانية، إلى الثمانية، تسعة، إلى الشاب البنت؛ فإذا كانت من بعد الملك، لا يمكنك أن تضع شيئاً وتخسر الخانة الشاغرة.

لا يلعب الحظ تقريباً أي دور في هذا النجاح. يمكنك التنبؤ سلفاً باللحظة التي تجعلك فيها خاناتك الأربع الشاغرة تتعثر بالملوك، وبالتالي تنتهي إلى الفشل، إذا لعبتها على الترتيب؛ لكن يمكنك تحديداً استخدام خانة، ثم غيرها، الرجوع إلى الأولى، استخدام الثالثة، الرابعة، الثانية مجدداً.مع ذلك، فمن النادر أن تنجح: تأتي دائماً لحظة تمتنع فيها اللعبة، أو، من بعد تصنيف نصف أو ثلث الأوراق، لا يعود بإمكانك سد الخانات

دون أن تكشف ملكاً من دون أي تبديل. من حقك، مبدئياً، محاولتان ثانيتان: يكفيك أن تترك في موضعها الأوراق التي سبق تصنيفها لتعيد توزيع الورق الباقي بعد خبطه مرتباً إياه في أربعة حقول. لكنك نادراً ما تلجأ إلى الفرصتين المقدمتين إليك؛ بمجرد أن تبدو لك اللعبة مسدودة الأفق تعيد جمع الأوراق كلها، تخبطها مرتين أو ثلاث مرات، تنشرها مجدداً لاختبار جديد.

تخبط ورق اللعب، تنشر، تسحب الآسات الأربعة، تنظر إلى اللعبة. تبدأ إلى حد ما لا على التعيين، مراعياً فقط ألا تكشف أحد الملوك بأسرع مما يجب. شيئاً فشيئاً تنتظم اللعبة، تظهر اختناقات، تبزغ إمكانيات: هنا ها هي ورقة مستقرة سلفاً في موضعها الصحيح، هنا ها هي حركة واحدة تؤمن ترتيب خمس أو ست أوراق دفعة واحدة، هناك أحد الملوك ينغص عليك ولا يمكن تحريكه.

تكاد لا تربح أبداً. تغش أحياناً، بالكاد، نادراً، مرات أكثر فأكثر ندرة. ليس النصر ما يهمك، إذ، ما يكون معنى نصرك، وإذا كان المقصود مجرد أن تقف الآلهة في صفك، فتوجد طرق عديدة أسهل لاستجلاب رعايتها. لكنك تلعب مرات أكثر فأكثر، زمناً أطول فأطول، أحياناً طوال فترة العصر، أو

ربما فور استيقاظك، أو حتى الصباح، وربما لا، وربما أكثر، كي تقتل الوقت.

في تلك اللعبة شيء ما يفتنك، حتى أكثر، ربما، من ألعاب الماء قرب الجسور، من متاهات السقوف، من الشعيرات الكثيفة بالكاد التي تتوضع ببطء جانبياً على قرنيتك.حسب موقعها، حسب اللحظة، تكتسب كل ورقة قدراً يكاد يكون مثيراً. تحمي، تدمر، تبني، توفّق، تخلُص من مخطط إلى مخطط: تدريب في سبيل لا شيء، مزلق لا عقوبة عليه من شيء، إجراء ترتيب مضحك: ثمان وأربعون ورقة تقيدك إلى حجرتك وتوشك أن تكون معها سعيداً لأن عشرة جاءت في موقعها، لأن ملكاً لا يستطيع أن ينهض في وجهك، أو توشك أن تكون تعيساً لأن جميع الحسابات المتمهلة تقود جميعها إلى النتيجة المستحيلة نفسها.كما لو أن هذه الستراتيجية المنعزلة والخرساء كانت تشكل لوحدها درباً، كانت قد صارت علّة وجودك.

إنه الليل. سيارات قليلة تمر مروراً عاصفاً. قطرة الماء البلورية تنعقد في صنبور مصطبة السلّم. جارك صامت، غائب ربما أو صار من الأموات. أنت مضطجع، بكامل ثيابك، علـى المقعد الخشبي، متصالب اليدين وراء الرقبة، مرتفع الركبتيـن. تغمض عينيك، تفتحهما. أشكال فيروسية، ميكروبيـة داخـل عينيك أو على سطح قرنيتك، تنحرف على مهل من أعلى إلى أسفل، تختفي، ترجع فجأة إلى المركز، متغيرة تغيراً طفيفـاً، أسطوانات أو فقاعات، غصينات متشعبة، ألياف مفتولة يرسـم

اجتماعها حيواناً خرافياً أو يكاد. تفقد أثرها، تعثر عليها من جديد؛ تفرك عينيك فتنفجر الألياف، تتكاثر.

يمر وقت، يغلبك النوم. تضع الكتاب المفتوح إلى جانبك، على المقعد الخشبي. كل شيء غامض، له طنين. تنفسك منتظم انتظاماً مدهشاً. دويبة صغيرة سوداء غير حقيقية فيما يبدو ظاهرياً تفتح ثغرة لاشك فيها في متاهة تشققات السقف.

تجر قدميك في الشوارع، ليلاً، نهاراً. تؤوب إلى دور السينما الحارات حيث تتموج رائحة كثيفة من المطهرات، تأكل سندويشات داخل مشارب، بطاطا مقلية في أقماع ورقية، تعبر أعياداً مقامة في السوق، تلعب بالبليياردو الكهربائي، تمضي إلى المتاحف، إلى الأسواق، إلى محطات القطار، إلى مكتبات المطالعة العمومية، تراقب واجهات بائعي التحف في شارع

جاكوب، باعة الزجاج في شارع براديس، باعة المفروشات في ضاحية سانت أنطوان.

على مر الساعات، الأيام، الأسابيع، الفصول، تنفض يدك من كل شيء، تنفصل عن كل شيء. تكتشف، تقريباً، أحياناً، بما يشبه الثمل، أنك حر، أن لاشيء يثقل عليك، لا ميلاً ولا نفوراً. تكتشف، في هذه الحياة غير المتآكلة والخالية من كل ارتعاش ما عدا تلك اللحظات المعلّقة التي يوفرها لك ورق اللعب أو بعض أصوات الضجيج، بعض المشاهد التي تقدمها لنفسك، سعادة تكاد تكون تافهة، آسرة، أحياناً مشحونة بانفعالات جديدة.تعيش راحة كاملة، أنت؛ في كل لحظة، محفوظ، محمي. تعيش داخل هامش سعيد، داخل فراغ عامر بالوعود ولا تتوقع منه شيئاً. أنت غير مرئي، صاف، شفاف. لم تعد موجوداً: تَلاحق ساعات، تَلاحق أيام، مرور الفصول، جريان الزمن، أنت مستمر على قيد الحياة، دون بهجة ودون حزن، دون مستقبل ودون ماض، هكذا ببساطة، بوضوح، مثل قطرة ماء بلورية تنعقد في صنبور خزان على مصطبة سلم، مثل ستة

جوارب منقوعة في حوض من البلاستيك الزهري اللون، مثل ذبابة، أو مثل محارة، مثل بقرة، مثل حلزون، مثل طفـــل أو مثل كهل، مثل جرذ.

أحياناً، ترسم العتمة أولاً الشكل غـــير الواضـــح لآس البستوني. يوجد أمامك نقطة ينطلق منـــها خطـــان يتبـــاعدان ويرجعان نحوك بعد دورة طويلة.

فيما بعد، إنه محيط، بحر أسود تبحر فوقه، كما لو كان أنفك عرفـ، أو بالأحرى حيزوم سفينة شحن هائلة. كل شـــيء سواد فاحم. ليس هو الليل، ليست هي العتمة، إنما العالم بأكمله أسود، طبيعياً أسود، كما في نيغـــاتيف صـــورة فوتوغرافيـــة، والأبيض فقط، أو ربما الرمادي، الموج الذي يرفعه مـــروركـ

على جانبي أنفك، على امتداد عينيك اللتين ربما هما جانبا السفينة، هناك، حيث، سابقاً، كان يرتسم آس البستوني، كما لو لم يكن سوى التمهيد لهذا الأخدود، الأثر المائل للبياض المتموّج الذي تخطه أمامك في انزلاقك على الماء الأسود. يحيط بك الماء من كل جانب، بحر أسود، ساكن، مسطح فوق العادة، حتى أنه ليس فوسفوري الوهج، ومع ذلك، لديك انطباع أنك قد تستطيع اكتشاف كل تفصيل، أدنى غيمة لو كانت هناك سماء، أصغر يابسة لو كان هناك أفق. لكن لا وجود إلا للبحر، وأنت بأكملك حيزوم يمخر دون جهد، دون ضجيج، دون اهتزاز، الآثار البيضاء والعميقة لدى مرورك، كأنها سكة محراث تقلب تربة حقل.

مع ذلك، في مكان ما في الأعلى، كما في ورقة نصف ملفوفة، كما لو أن شاشة تبدأ بالظهور ليعرض عليها نيغاتيف فلم سينمائي، سرعان ما تعود السفينة نفسها، لكنها الآن تشاهد من فوق، بالكامل، وأنت، أنت نفسك، على ظهرها، متكئاً على الحاجز النافر، أو بالأحرى على المقدمة النافرة، في وضعية تحمل ملامح رومانتيكية. لفترة طويلة، هذا الانطباع المزدوج يظل واضحاً وضوحاً مطلقاً، وحتى، إذا ما أثار شيء ما عصبيتك، انزعاجك، فهذا لأنك لا تعود قادراً على معرفة ما إذا كنت أولاً الحيزوم الوحيد المنزلق على البحر الأسود رافعاً

أمواجاً بيضاء. وثانياً، تقريباً في الوقت نفسه، ما يشبه الوعي بأنك أنت الحيزوم، أي، من الأعلى، السفينة بأكملها والتي أنت فيها المسافر الهامد المتكئ على ظهرها في وضعية شبه رومانتيكية، أم أنه، على العكس، توجد أولاً السفينة بأكملها منزلقة على البحر الأسود، برفقتك، مسافراً وحيداً، متكئاً على الحاجز، وثانياً، من بعد تضخيم غير محدود، مجرد جزء من تلك السفينة، الحيزوم، شاقاً اللجج، ناشراً على الجانبين أمواجاً بيضاء كثيفة، لكنها قد تكون مرسومة بدقة مبالغ فيها حتى لاتعود أمواجاً حقيقية، بل هي بالأحرى طيات، أثواب مطوية، مع تصوير يعطي بعض العظمة، تقريباً بالسرعة البطيئة.

لفترة طويلة، السفينتان، الجزء والكل، أنفك الحيزوم وجسمك سفينة الشحن تبحران متلازمتين دون أن يسمح لك أي شيء بفصلهما: أنت في الوقت نفسه الحيزوم والسفينة مثلما أنك على السفينة. ثم، ينبثق أول تناقض، لكن لعله مجرد وهم نظر مردّه اختلاف المقاييس، المنظورات: فيبدو لك أن السفينة تمضي متمهلة، تمهّلٌ يزداد شيئا فشيئا، ربما قليلا كما

لو أنك تراها بتراجع يبعد أكثر فأكثر، يعلو أكثر فأكثر، لكن رغم ذلك، أنت، متكئاً على الحاجز النافر، لا تتضاءل على الإطلاق، تظل على الدوام في حقل الرؤية نفسه، أما الحيزوم، من جانبه، فيزداد سرعة أكثر فأكثر، مثلما أنه يكف عن الانزلاق، لكنه يمضي خفيفاً على الماء الأسود، مثل مركب خفيف، أو حتى مثل مركب سباق، ولا يعود على الإطلاق مثل سفينة شحن نظامية.

حينذاك، وهذا ما يغدو على الفور أشد خطورة، كما لو كنت تعلم، ربما بالتجربة، أن ما هو قيد التشكّل هو بداية النهاية، لأنك لن تستطيع أبداً أن تتحمل أكثر من هنيهات عدة، أكثر من ثوان عدة، كثافة ما هو مقبل، رغم عدم انكشاف أي شيء حتى حينه، ماعدا، ربما، على الأكثر، نذيراً أولياً، قرينة معناها لم يكن حتى مؤكداً وتنتظر منها الآن التوضيح برجاء لا جدوى منه أن يظل كل شيء رجراجاً لأطول مايمكن، إذ، منذ ذاك، كما تعلم، تتربص بك اليقظة، وتململك هو بالضبط ما قد حركها للتو وجميع جهودك لتأخيرها لا دور لها سوى تسريعها أكثر، حينذاك، ينبثق مثل كل مرة، ليس ببطء كاف، انطباع هو في الوقت ذاته مثير ومرهق، رائع ومحبط، سرعان ما يزداد وضوحاً أكثر من اللازم، وبسرعة كبيرة يصبح واخزاً، تقريباً

موجعاً: اليقين اللامعقول، أو بالأحرى أنه لم يصبح بعد لا معقولاً، لكنه منذ ذاك مآله إلى اللامعقول، أنك سبق لك أن عشت تلك الصورة، أنها ذكرى حقيقية، دقيقة في جميع تفاصيلها: فالبحر كان أسود، والسفينة كانت تتقدم متمهلة في ممرها الضيق ينبجس على جانبيها الزبد الأبيض في باقات، وكنت متكئاً على حاجز النزهة بوضعية رومانتيكية قليلاً هي وضعية جميع المسافرين في جميع السفن عندما يستنشقون الهواء مراقبين طيور البحر، وكنت تشعر تماماً الشعور نفسه الذي يخالجك الآن، علماً أنك لا تحمل الآن أي شعور، إلا ما كان من الشعور المهلك، والذي هو أكثر فأكثر هلاكاً، وهو معرفتك في الوقت نفسه باستحالة مثل تلك الذكرى وعدم إمكانية المساس بها.

فيما بعد، فيما بعد ذلك بكثير، لعلك استيقظت مرات عديدة، عدت إلى النوم مرات عديدة، انقلبت على الجنب الأيمن، على الجنب الأيسر، نمت على ظهرك، على بطنك،

لعلك حتى أشعلت الضوء، دخنت لفافة، فيما بعد، فيما بعد ذلك بكثير، يصير النوم هدفاً، أو بالأحرى لا، على العكس، تصير أنت هدف النوم. إنه موقد متوهج، متقطع الوهج. أمـــامك، أو، بدقة أكبر، أمام عينيك، أحياناً بالأحرى إلى اليســـار، أحيانـــاً بالأحرى إلى اليمين، أبداً في الوسط، عشرة آلاف نقطة بيضاء صغيرة تنتظم، راسمة، مع الوقت، شيئاً يشبه القط، رأس فـــهد يشاهد جانبياً، يتقدم، يتضخم، مبرزاً كلابتين فولاذيتيـــن، ثـــم يختفي، مفسحاً المكان لنقطة مضيئة تتضخم، تصبـــح معينـــاً، نجمة، وتهوي عليك بسرعة خاطفة، وتحيد عنك في آخر لحظة مارة عن يمينك. تتكرر الظاهرة مرات عدة، بفواصل منتظمة: لا شيء في البداية، ثم نقاط ما تكاد تكون مضيئة، رأس فـــهد يرتسم، ثم يتوضح، يكبر وهو يـــزأر، كاشـــفاً عـــن كلابتيـــن فولاذيتين، ثم نقطة بارقة، تقريباً متفجرة، تنتفـــخ، فـــالمعين، فالنجمة، ثم كتلة ضوئية مستديرة تهجم عليك، تحيد عنك لحظة الصدام، مارة على مقربة كبيرة منك حتى ليخيل إليك تقريباً أنك لمستها، شممتها، سمعتها، ثم لا شيء من جديد، لفترة طويلـــة، فنقاط بيضاء، فرأس فهد، فالنجمة التي تكبر وتمر قربك.

ثم لا شيء، لفترة طويلة، أو، فيما بعد، أحيانـــاً، فـــي مكان ما، شيء ما كنجم أبيض يتفجّر ...

مع الوقت تصبح برودتك خرافية. عيناك فقدتا كل ما كان يبعث فيهما الألق، هيكلك أصبح متهاوياً تماماً. صفاء لا تعب فيه، لا مرارة، يرتسم في زاوية شفتيك. تنزلق في الشوارع، مستعصياً على اللمس، محمياً بالتلف المعتدل لثيابك، بحياد خطواتك. لم يعد لديك إلا حركات مدروسة. لم تعد تنطق إلا بالكلمات اللازمة. تطلب:

قهوة،

مقبلات،

وجبة ونبيذ،

نصف،

فرشاة أسنان،

دفتر جيب.

تدفع، تضع في جيبك، تأخذ مكاناً، تشـــرب. تتنـــاول "اللوموند" من فوق الرزمة وتضع قطعتي عشرين سنتيماً فـــي صحن البائع. لا تقول أبداً من فضلك، صباح الخير، شكراً، إلى اللقاء. لا تعتذر. لا تسأل عن طريقك.

تجر قدميك، تجر قدميك، تجر قدميك. تمشي. جميـــع اللحظات متساوية، جميع الأماكن متشابهة. لست أبـــداً علـــى عجل، أبداً على غير هدى. لا تنظر إلى الوقت في الســـاعات المعلّقة. لا تشعر بنعاس. لا تشعر بجوع. لا تتثاءب أبـــداً. لا تنفجر أبداً بالضحك.

لم تعد حتى تتسكع، إذ وحدهم يستطيعون التسكع أولئك الذين يسرقون زمن التسكع، الدقائق الثمينة التي يتفنّـــون فـــي شطبها من جدول مواعيدهم. في البداية، كنت تختار خطـــوط سيرك، كنت تحدد لنفسك أهدافاً، كنت تتخيل جولات معقدة تتخذ رغماً عنك شكل رحلات عوليس. لقد نفذّت من بعـــد جـــولات أخرى كثيرة، حجاً إلى سان جوليان لوبوفر، طوفت دائرياً قرب

مدخل المدائن، انزرعت تحت برج إيفل، صعدت إلى أعلى بعض العمائر، مررت من فوق جميع الجسور، مشيت بمحاذاة ضفاف النهر جميعاً، زُرت جميع المتاحف، غيمي، سرتوشي، كرنفاليه، بورديل، دولاكروا، نيسيم دوكاموندو، قصر الاكتشافات، اكواريوم تروكاديرو، رأيت ورود باغاتال، مونمارتر في المساء، أسواق الهال عند انبلاج الفجر، محطة سان لازار ساعة خروج الموظفين من مكاتبهم، الكونكورد في منتصف الظهيرة يوم 15 آب. لكن إذا كان الهدف سياحياً، ثقافياً، أو ربما مخيباً، سخيفاً، أو حتى استفزازياً (شارع دولابومب، شارع دي سوسي، ساحة بوفو، كورنيش دي أورفيفرا) فهذا لا يمنعه من أن يكون هدفاً، أي توتراً، إرادة، انفعالاً.سياحتك، حتى وهي لاهية وساخرة، رغم الذكرى البعيدة للسرياليين، كانت ما تزال منبع تيقظ ، استخداماً للوقت، قياساً للمكان.

كما لم تعد تختار أفلامك، داخلاً دون تفريق إلى أول صالة تصادفها في حدود الثامنة، التاسعة أو العاشرة مساءً، فلا تعود في الصالة المظلمة إلا ظل متفرج، ظلٌ ظلٍّ يراقب على مستطيل متطاول تَشكل وتَفكك اجتماع مجموعات منوعة من ظلال وأضواء تَحبُك دون توقف المغامرة نفسها: موسيقا، فتنة، انتظار؛ كما لم تعد تختار وجباتك، ولم تعد تتكلف أبداً تنويعها،

المضيّ إلى النهاية مع الثلاثمائة تركيبة التي توفرها لـك فـي مطعم بوتيت سورس خمس قطع نقدية من الفرنك، ثلث جعالتك اليومية، في أسفل جيبك؛ كما لم تعد تختار ساعات نومـك، ولا مطالعاتك، ولا ثيابك...

تستسلم للتيار، تترك نفسك يجرفك التيـار: يكفـي أن يصعد الجمهور أو ينزل الشانزيليزيه ، يكفي ظـهر رمـادي يسبقك بضعة أمتار وينحرف في شارع رمادي؛ أو ربما ضـوء أو غياب الضوء، ضجيج أو غياب الضجيـج، جـدار، شـلة، شجرة، ماء، مدخل مسقوف، سياج، إعلانات، أرض مرصوفة، معبر محدد بالمسامير، واجهة، إشارة ضوئية، لوحة شـارع، شعار نوع من التبغ، معروضات بائع أدوات خياطـة، سـلّم، دوّار...

تمشي أو لا تمشي. تنام أو لا تنام. تنزل طوابقك السـتة، تعود فتصعدها. تشتري اللوموند أو لا تشتريها. تأكل أو لا تـأكل. تجلس، تتمدد، تظل واقفاً، تنزلق داخل صالة سينما معتمة. تشـعل

لفافة تبغ. تعبر الشارع، تعبر السين، تتوقف، تعود إلى الانطلاق. تلعب بالبلياردو الكهربائي أو لا تلعب.

.

أحياناً، تظل ثلاثة، أربعة، خمسة أيام في حجرتك، لا تعلم. تنام تقريباً دون توقف، تغسل جواربك، قميصيك.تعيد قراءة رواية بوليسية سبق لك أن قرأتها عشرين مرة، نسيتها عشرين مرة. تحل الكلمات المتقاطعة في صحيفة لوموند مهملة أرضاً. تنشر على مقعدك الخشبي أربعة صفوف في كل صف ثلاث عشرة ورقة لعب، تسحب الآسات، تضع سبعة الكبّا بعد ستة الكبّا، ثمانية السباتي بعد سبعة السباتي، اثنتي الدينار في موضعها، ملك الدينار بعد بنت الدينار، شاب الكبّا بعد عشرة الكبّا.

تأكل مربّى على الخبز، مادام عندك خبز، على الخبز المقمّر، إذا كان عندك منه، ثم بالملعقة الصغيرة، داخل الوعاء.

تتمدد على مقعدك الخشبي الضيق، متصـــالب اليديـــن خلف الرقبة، مرفوع الركبتين.تغلق عينيك، تفتحـــــهما.أليـــاف مفتولة تنحرف بتمهل من أعلى إلى أسفل على سطح قرنيّتك.

تعدو وتبوّب تشققات، تقشرات، صدوع السقف. تراقب وجهك في مرآتك المشقوقة.

لا تتكلم بمفردك، ليس بعد. لا تزعق، هذه خاصةً لا.

ليس للامبالاة بداية و لا نهاية: إنها حالة هامدة، ثقـــل، عطالة قد لا يكون في وسع أي شيء زعزعتها. مازالت تصـــل دون شك رسائل من العالم الخارجي إلى مراكزك العصبية، لكن لا استجابة إجمالية، مما يمكنه تحريك كامل عضويتك، تبـــــدو

قادرة على التشكل. ظلت لديك فقط ردود فعل أولية: لا تعبر عندما تكون إشارة المرور حمراء، تحتمي من الريح كي تشعل لفافتك، تلبس أكثر في صباحات الشتاء، تغيّر قميصك، جواربك، سروالك والثياب الداخلية حوالي مرة أسبوعياً وأغطية السرير أقل قليلاً من مرتين شهرياً.

اللامبالاة تفكك اللغة، تشوش الإشارات. أنت صبور، ولا تنتظر، أنت حر ولا تختار، أنت في جاهزيتك ولا شيء يحركك. لا تطلب شيئاً، لا تفرض شيئاً، لا تلزم بشيء.تسمع دون أن تصغي أبداً، ترى دون أن تنظر أبداً: تشققات السقوف، ألواح الأرض، رسوم التبليط، التجعدات حول عينيك، الأشجار، الماء، الأحجار، السيارات التي تعبر، الغيوم التي ترسم في السماء أشكال غيوم.

الآن، تعيش داخل ما لا نهاية له. كل نهار قوامه صمت وضجيج، ضياء وسواد، كثافة، انتظار، ارتعاش. لا غاية إلا أن تضيع، مرة إضافية، إلى الأبد، في كل مرة أكثر، أن تتيه دون نهاية، أن تجد النوم، بعض طمأنينة للجسد: استرخاءٌ، إعياء،

تلاشٍ، انحراف جانبي. تنزلق، تستسلم للغرق، للانفلاش: البعد عن الفراغ، الهرب منه، المشي، التوقف، الجلوس، الجلـــوس إلى طاولة، الاتكاء بالمرفقين، التمدد.

حركات رجل آلي: يقظتك، اغتسالك، حلاقتك، ارتـــدا ملابسك. سدادة فلين على الماء: الضياع، السير وراء الجمهور الحاشد، جر القدمين: الصيف في الصمت الكثيـــف، مصــــاريف مغلقة، شوارع ميتة، إسفلت دبق؛ الشتاء في الضيــــاء البـــار للواجهات، قناديل، أبخرة عند أبواب المقاهي، أجزاء سوداء في الأشجار الميتة.

تؤوب إلى مقاهٍ بائسة، مقاهٍ قميئة، مطاعم بسيطة، "قان راي شاربون" دون أضواء، برائحة الخل و الاتساخ. تمشي في شوارع دهنية صغيرة بمحاذاة الجـــدران الملطخـــة بإعلانـــات ممزقة، ووجهتك شارع ميشيل أو شاتولاندون. تجلـــس على مقاعد حدائق الساحات والحدائق العامة، مثل متقـــاعد، مثـل كهل، لكن عمرك ليس سوى خمسة وعشرين عامـــاً. تمضـــي لتنتظر في صالونات الفنادق، جالساً على كنبة من الجلد التقليد تراقب الناس يروحون ويجيئون. تقرأ النشرات، الكتالوغـــات الإعلانات، تقرأ النشرات السياحية المختصرة، باريس في الليل رحلة إلى الهند، المجلات الملقاة بإهمـــال، "صـــدى الخدمـــات

الفندقية الفرنسية"، "مجلة أندية السياحة الفرنسية"؛تمضي لتقـرأ الصحف المعلقة أمام دور الطباعـة أو التحريـر: اللومونـد، الفيغارو ، الكابيتال، الحياة الفرنسية. تجر قدميك في دور الكتب الوطنية، ينظمون لك بطاقة، تقرأ كتب التاريخ، مؤلفات ثقافيـة منوعة، مذكرات رجال الدولة، متسلقي جبال، رجال دين.

تمشي على امتداد الأرصفة، تنظر في قنوات تصريـف الماء، في المسافة الفاصلة كثيراً أو قليلاً بين السيارات المتوقفة عند طرف الشارع. تجد فيها كرات صغيرة، نوابض صغيرة ، حلقات، قطعاً نقدية، قفازات أحياناً، محفظة نقدية ذات يوم، فيها مال قليل، أوراقاً، رسائل، صوراً فوتوغرافية كـادت تنـتزع الدموع من عينيك.

تراقب لاعبي الورق في حدائق اللوكسمبورغ، ألعـاب الماء الكبرى في قصر شايو، تمضي إلى اللوفر يـوم الأحـد، عابراً دون توقف جميع الصالات، متجمداً في النهاية أمام لوحة بعينها أو أمام غرض بعينه: بورتريه أحد رجال النهضة المتمتع بحيوية لا تصدق، وله ندبة صغيرة جداً فوق الشفة العليا، إلـى اليسار، أي إلى اليسار منه، إلى اليمين منك، أو ربمـا حجـر منقوش، ملعقة مصرية صغيرة تظل أمامها ساعة، ساعتين قبل أن ترحل دون التفات إلى الوراء.

مشي لا يتوقف، لا يتعب. تمشي مثـــل رجـــل يحمـــل حقيبتين غير منظورتين، تمشي مثل رجل يتبع ظلـــــه. مشـــي أعمى، مسرنم، تتقدم بخطوة آلية إلى ما لا نهاية، إلى أن تنسى أنك تمشي.

متسكع مدقق، وطواط ليل لا نقص فيه، ظهور يمكـــن لقماش مشرع في الهواء أن يجعلهم يظنونه خطأ شبحاً لا يمكن أن يرعب حتى الأطفال الصغار.

مشّاءً لا يتعب ، تعبر باريس من أقصاها إلى أقصاهـا، كل مساء، منبثقاً من ثقب حجرتك الأسود، من درجك المتعفـن، من باحتك الخرساء؛ إلى مـــا وراء القطاعـــات الكـــبرى ذات الضياء والصخب: الأوبـــرا، البولفـــار، الشـــانزيليزيه، ســـان جيرمان، مونبارناس، تغوص باتجاه المدينة الميتة، باتجاه بيرير أو سانت انطوان، باتجاه شارع لونشان، جادة الأوبيتال، شارع أوبيركامف، شارع فرسانجتوركس.

المقاهي مفتوحة طيلة الليل. تظل واقفاً، هامداً على وجه التقريب، مرفقك موضوع على المشرب الزجاجي، لوح سميك نصف شفاف دائري الأطراف مثبت ببراغ نحاسية تشده إلى قاعدة اسمنتية، متجه بنصف استدارة باتجاه بلياردو كهربائي يتشبث به بعناد ثلاثة بحارة. تشرب نبيذاً أحمر أو قهوة.

حياة دون مفاجآت.أنت في مأمن. تنام، تأكل، تمشي، تستمر في الحياة، مثل جرذ مخبر نسيه باحث في متاهته فهو صباح مساء، دون أن يخطئ أبداً، دون أن يتردد أبداً، يأخذ طريق معلفه، يدور يساراً، ثم يميناً، يدوس مرتين على دوّاسة مؤطّرة بالأحمر كي يحصل على جعالته الغذائية من الحساء.

لا تراتب على الإطلاق، لا أفضلية على الإطلاق. لا مبالاتك ساكنة مستقرة. رجل رمادي لا يسبب اللون الرمادي له

أي غبش. لا فاقد الإحساس، إنما محايد. يجتذبك الماء، مثــــل الحجر، العتمة مثل الضياء، الحرّ مثــل الــبرد. لا وجــود إلا لمشيك، ولنظراتك التي تحط وتنزلق، غائبة عن الجميل، القبيح، المألوف، المذهل، دون أن تلتقط أبداً أي شيء سوى تركيبــات أشكال وأضواء تتشكل وتتلاشى، دون توقف، في كل مكــــان، داخل عينك، على السقوف، عند قدميك، في السماء، في مرآتك المشقوقة، في الماء، في الحجر، في الحشود. ساحات، جــلدات، حدائق ساحات وبولفارات أشجار وأسيجة، رجال ونساء، أطفال وكلاب، انتظارات، فورات لغــط واضطـــراب، عربــات و واجهات محلات، عمارات، واجهات عمارات، أعمدة، تيجــان أعمدة، أرصفة، قنوات تصريف ماء. شوارع مرصوفة تلمــع حجارتها الغرينية تحت رذاذ المطر الناعم، رمادية، أو تقريبــاً حمراء، أو تقريباً بيضاء، أو تقريباً سوداء أو تقريباً زرقـــاء، امتدادات صمت، فورات صراخ، ضجيج، حشود المحطــــات، المخازن، البولفارات، شوارع ســـوداء بالزحـــام، كورنيشـــات سوداء بالزحام، شوارع مهجورة فـــي آحـــاد آب، صباحـــات، مساءات، ليالٍ، ساعات للفجر وللغروب.

أنت الآن السيد المجهول للعالم، ذاك الذي لم يعد للتاريخ تأثير عليه، ذاك الذي لم يعد يحس بالمطر يهطل، الذي لم يعـد يرى الليل يخيّم.

لا تعرف إلا وضوحك الخاص: وضوح حياتك التـي تستمر، تنفسك، خطواتك، تقدمك فـي العمـر. تـرى النـاس يروحون ويجيئون، الحشود والأشياء تتشكل وتتفكك. ترى، في الواجهة المتناهية الصغر لحانوت بائع أدوات خياطـة مثلثـاً بستائر تتركز عليه فجأة عيناك: تمضي في طريقك: إنك بعيـد في حرز حريز.

التقاء عينك مع الوسادة يتولد عنه جبل، منحدر رهـــي إلى حد ما، ربْع، أو بالأحرى قوس جلقة دائرية ينفصل عنـــد المقدمة، أشد حلكة من الحيز الباقي. هذا الجبل ليس فيه ما يثير الاهتمام؛ إنه عادي. للحظتها، يكون ذهنك مشغولاً بمهمة قـــد يتوجب عليك أداؤها، لكنك لا تتوصل إلى تحديدها بدقة؛ يبـــدو أنها مهمة قليلة الأهمية في حد ذاتها وليســت، ربمـــا، ســوى الذريعة، الفرصة لتتحرى إن كنت تعرف المفتـــاح؛ تفـــترض، مثلاً، وهذا يتأكد على الفور، أن المهمة مؤدّاها أن تعيد إيهامك،

أو ربما يدك بأكملها، من فوق الوسادة: لكن هل عليك أنت بالفعل القيام بذلك؟ فوضعك في السلم الاجتماعي، سنوات خدمتك ألا تعفيك من هذه السخرة؟ هذه المسألة هي وضوحاً أكثر أهمية بكثير من المهمة ذاتها، وليس عندك ما يعين على حلها، ما كنت تحسب أنك، بعد هذه المدة الطويلة، سوف تظل مسؤولاً عن مثل هذه الحسابات. ناهيك أنك، بإمعان التفكير فيها أكثر فأكثر، تتنبه إلى أن المشكلة هي أعقد أيضاً مما تبدو عليه: فليست القضية معرفة ما إذا كان عليك أم لا إعادة إبهامك، إنما من أعلى إن كان قِدمك كافياً، من أسفل إن لم يكن قِدمك كذلك، وبالتأكيد ليس لديك أدنى فكرة عن قِدمك، الذي يبدو لك كبيراً، لكن ليس بما يكفي. لعلهم حتى قد اختاروا لطرح هذا السؤال عليك اللحظة المحددة التي لا يستطيع فيها أحد حتى أكثر القضاة نزاهة، أن يؤكد دون أدنى لبس إن كنت أم لم تكن قديماً بما فيه الكفاية ؟

يمكن أيضاً طرح السؤال حول قدميك أو حول فخذيك.
إذ، هو سؤال لا يعني شيئاً: المشكلة الحقيقية، هي مشكلة الاحتكاكات، مبدئياً: احتكاك جسدك مع الأغطية، بما يخص فخذك الأيسر، قدمك اليمنى، ذراعك الأيمن، جزءاً من بطنك، وهو انصهار، تناضح، امتزاج؛ واحتكاك جسدك مع ذاته، في كل نقطة يلتقي فيها لحمك بلحمك، حيث القدم اليسرى تمر فوق القدم اليمنى، حيث الركبتان تلتقيان، حيث مرفقك يلطم معدتك: فهذه حادة، دافئة أو باردة، أو دافئة وباردة. يمكن وضوحاً، تقريباً دون المخاطرة بشيء، عكس العملية بأكملها والتأكيد بأن الأمر هو على النقيض، القدم اليسرى تحت القدم اليمنى، الفخذ الأيمن تحت الفخذ الأيسر.

أوضح الأمور، في جميع ذلك، هو وضوحاً أنك لست مضطجعاً، لا على الجنب الأيمن، ولا على الجنب الأيسر، مطوي الساقين قليلاً، شاداً على الوسادة بذراعيك، لكنك معلّق والرأس إلى أسفل، مثل وطواط في سبات شتوي أو بالأحرى مثل إجاصة ناضجة أكثر مما يجب على شجرتها: كما لو أنك

في كل لحظة تستطيع السقوط، وهو ما لا يبدو لك ذا إزعـــاج مختلف لاحتماء رأسك تماماً بالوسادة، لكن، مـــع ذلـــك، مـــن واجبك التملص من هذا الخطر، مهما كان ضئيـــلاً. لكـــن إذا استعرضت الوسائل التي تعرفها، لن يتأخر بك الوقت كي تتنبه إلى أن الموقف أخطر مما قدرته بادئ الأمر، ولو لمجـــرّد أن فقدان التوازن الأفقي نادراً ما يكون مواتياً للنوم. يجـــب إذن أن تحزم أمرك باتجاه السقوط، حتى لو كنت تعلم سلفاً أنه لن يكون كثير الإمتاع، فلا يعلم المرء أبداً متى يتوقف ســـقوطه، لكنـــك خصوصاً، لا تعلم ما العمل كي تسقط، فما يبدأ ســـــقوطك إلا عندما لا تفكر به، وكيف يمكنك ألا تفكر به ما دمت بـــالضبط تفكر به؟ إنه أمر لم يعاينه أحد أبداً معاينة جدية ورغم ذلك فله أهميته: لا بد أن توجد كتابات في هـــذا الموضـــوع، كتابـــات موثوقة، قد تسمح بالتصدي لهذه المواقف، المنتشرة أكثر بكثير مما يُظن عموماً.

ثلاثة أرباع جسمك احتمت في رأسك؛ قلبك استقر في حاجبك، حيث تأقلم كل التأقلم، حيث يخفق خفقان شيء حي، مع، علاوة على ذلك، بعض التسارع الأكبر قليلاً. يجب أن تنادي على أجزاء جسمك، أن تتحرى عدم نقص أطرافك، أعضائك، أحشائك، أغشيتك المخاطية. تريد حقاً أن تطرد من رأسك جميع هذه الأجزاء التي تتراكم فيه وتثقله، وفي الوقت نفسه، تهنئ نفسك لأنك أنقذت القسم الأعظم، لأن كل المتبقي قد ضاع، فلم يعد لك قدمان، لم يعد لك يدان، ربلة ساقك تحولت بأكملها إلى سائل.

يزداد كل ذلك تعقيداً على تعقيد: فيجب بادئ الأمر أن تنزع مرفقك وفي المكان الذي شغر، قد يمكنك أن تضع على الأقل قسماً من بطنك، وهكذا دواليك، إلى أن تعود فتصبح من جديد تقريباً خلقاً سوياً. لكنه أمر صعب إلى درجة تثير الهلع:

فهناك قطع ناقصة، وقطع أخرى مزدوجة، وغيرها تضخم بـلا حدود، وغيرها ينشر ادعاءات إقليمية في غاية الجنون: مرفقك أصبح مرفقاً أكثر من أي يوم مضى، كنت قد نسيت أن بإمكان مرفق أن يصبح مرفقاً على هذه الصورة، وظفر قـد احتـل موضع يدك. وبالتأكيد، تلك اللحظة بالذات هي التي يختارهـا الجلادون كي يتدخلوا. أحدهم يدخل اسفنجة مليئة بالطباشير في فمك، آخر يسد أذنيك بالقطن؛ بعض النشّارين بالطول تمركزوا في تجاويفك، مهووس بالنار يشعل حريقا في معدتك، خياطون ساديون يضغطون قدميك، يغرزون على رأسك قبعة متناهيـة الصغر، يحشرونك حشراً داخـل معطـف متنـاهي الضيـق، يخنقونك خنقاً بربطة عنق؛ منظف مداخن ومسـاعدون معـه: أدخلوا حبلاً ذا عقد داخل رغامك، ورغم مجهودات مشـكورة، لا يتمكنوا من سحبه.

يأتون تقريباً في كل مرة. تعرفهم حق المعرفة. تكـاد تكون مطمئناً. فإذا كانوا معك، فهذا معناه أن النوم لـم يعـد بعيداً. سوف يجعلونك تتألم قليلاً، ثم يتعبون و يدعونـك فـي طمأنينة. إنهم يؤلمونك، هذا مفهوم، لكن لديك وجهاً لوجه حيال وجعك ، كما حيال جميع الأحاسيس التي تدركها، جميع الأفكار التي تعمُرك، جميع الانطباعات التي تشعر بها، تجرّد كلّي.ترى

نفسك تندهش دون دهشة، تُفاجَأ دون مفاجأة، يهاجمك الجلادون دون وجع. تنتظر أن يستكينوا. تسلمهم راضياً جميع الأعضاء التي يريدونها. تراهم من بعيد يختصمون على بطنك، أنفك، حنجرتك، قدميك.

لكن غالباً، غالباً جداً، يكون ذلك الفخ الأكبر. حينذاك يتولد الأسوأ. يصعد ببطء، بشكل غير محسوس. بادئ الأمر يكون كل شيء هادئاً، هادئاً أكثر مما يجب، عادياً، عادياً أكثر مما يجب. يبدو كل شيء وكأنه لن يتحرك بعد. لكنك تعلم فيما بعد، تبدأ تعلم، بيقين أشد رسوخاً أكثر فأكثر، أنك ضيعت جسمك، أو بالأحرى لا، أنك تراه، ليس بعيداً عنك، لكنك لن تلحق به أبداً.

لا تعود من بعد ذلك سوى عين. عين هائلة و ثابتة، ترى كل شيء، على حد سواء جسمك المتراخي، وأنت، منظوراً وناظراً، كما لو أنها قد انقلبت كلياً في محجرها وأنها تتأملك دون أن تقول لك شيئاً، أنت، داخلك أنت، الداخل

الأسود، الفارغ، المخضرّ، المذعور، العاجز، داخلـــك أنـــت. يراقبك ويثبتك بالمسامير. لن تكف أبداً عن رؤيـــة نفســك. لا تستطيع القيام بشيء، لا تستطيع الفرار بنفســك، لا تســتطيع الفرار من نظرتك، لن تستطيع أبداً: حتى لو تمكنت من النـــوم بعمق كبير حتى لا يمكن لأية هـــزة، لأي نـــداء، لأي حـــرق إيقاظك، تظل ما تزال تلك العين، عينك، التي لن تنغلق أبـــداً، التي لن تنام أبداً.

ترى نفسك، ترى نفسك بأنك ترى نفسك، تراقب نفسك أنك تراقب نفسك. حتى لو استيقظت، تظل رؤيتك هي نفســـها، دون تغيير. حتى لو تمكنت أن تضيـــف إلـــى نفســك آلاف، مليارات الأجفان، تظل أيضاً، من الخلف، تلـك العيـن، كـــي تراك.أنت غير نائم، لكن النوم لن يأتي بعد تلك اللحظة. أنـــت غير مستيقظ ولن تستيقظ أبداً. أنت غير ميت وحتى الموت لـن يستطيع تخليصك...

حرٌّ مثل بقرة، مثل محارة، مثل جرذ!

لكن الجرذان لا تسعى للنوم طيلة ساعات. لكن الجرذان لا تستيقظ بإجفالة، وقد سيطر عليها الذعر، وهي غارقة في العــرق. ولكن الجرذان لا تحلم وماذا بوسعك أن تفعل لردّ أحلامك؟

لكن الجرذان لا تقرض أظافرها، وخصوصـــاً دائمـــاً وبشكل منظم، على مدى ساعات كاملة، إلى أن لا يعود طـرف مخالبها سوى جرح نازف.تنتزع الجزء المتقرن حتـــى وســط الظفر، مميتاً الأماكن التي يلتصق فيها باللحم؛ تمـــزق الجلــد الميت تقريباً على طول السُلامى الأخيرة إلى أن يبدأ الدم يتبلور نقطاً، إلى أن تؤلمك أصابعك حتى أن، خلال ســاعات، أدنـــى احتكاك يصبح تحمله لا يطاق فلا يعود بإمكانك أن تقبض على أي شيء، وتجد نفسك ملزماً بغمس يديك في الماء المغلي .

لكن الجرذان على حدّ علمـــك لا تلعــب بالبليـــاردو الكهربائي. تلتصق بالأجهزة، خلال ساعات، خلال ليال، بشكل مسعور، بشكل محموم. تزفر بانفعال شديد، ملتحمـــاً بالآلــــة، ملاحقاً بخبطات هائلة من خاصرتيك وثبات كــــرة الفــولاذ. تستميت في مواجهة النوابض، الأضواء، الأرقام، المعابر .

نساء بالألوان تضيء عيونهن، تنخفض مراوحـــــهن. ليس بإمكانك مقاومة إشارة النهاية أو الخطأ. بإمكانك أن تلعب أو لا تلعب. لا تستطيع عقد حوار، لا تستطيع أن تجعلها تقول ما لا تستطيع قوله لك. عبثاً تشد نفسك إلى الآلة، تلهث ملتحماً بها، فإشارة النهاية تظل باردة حيال الصداقة التي تشعر بـها، حيال الودّ الذي تبحث عنه، حيال الرغبة التي تمزقك. ســـتة آلاف نقطة، علماً أن ألف وأربعمائة تكفي، لا تؤدي إلا إلـــى تمزيقك أكثر، إلا إلى إغراقك أكثر قليلاً .

تجر قدميك في الشوارع، تدخل إلى سينما، تجر قدميك في الشوارع، تراقب السين، حوانيت القصّـــابين، القطـــارات، الإعلانات، الناس. تجر قدميك في الشوارع، تدخل إلى ســـينما تشاهد فيها فلماً يشبه ذاك الذي شاهدته لتوك، الحكاية الورعـــة نفسها يحكيها سيد أذكى مما يجـــب، وهـــي عـــامرة بـــاللطف والموسيقى، ومن ثم الاستراحة، وأفلام دعائية سبق لك رؤيتها عشرين مرة، مائة مرة، أحداث الساعة التي سبق لك رؤيتــــها

عشر مرات، عشرين مرة، فلم توثيقي عن السردين، أو عن الشمس، عن هاواي أو عن دار الكتب الوطنية، الشريط الإعلامي عن فلم سبق لك رؤيته وسوف تعود إلى رؤيته، الفلم الذي رأيته للتو والذي يعود عرضه من جديد مرة ثانية، مع أسماء المشاركين فيه بفواصل متقطعة، بلاج إتريتا، البحر، طيور البحر، الأطفال الذين يلعبون على الرمل .

تخرج، تجرّ قدميك في الشوارع المضاءة أكثر مما يجب، تعاود الصعود إلى حجرتك، تنزع ثيابك، تندس تحت الأغطية، تطفئ الضوء، تغمض عينيك. إنها الساعة التي تتزاحم فيها من حولك نساء يتعرّين بسرعة خاطفة، إنها الساعة التي تخبل فيها عقلك بكتب مقروءة مائة مرة، والتي فيها تتقلب يميناً ويساراً مائة مرة، دون أن تجد سبيلاً إلى النوم. إنها الساعة التي تمتد فيها يدك، مفتوح العينين على اتساعهما في العتمة، لتتحسس عند قدم المقعد الخشبي الضيق بحثاً عن منفضة، عن كبريت، عن لفافة أخيرة، لتقيس بهدوء امتداد مأساتك .

الآن تنهض ليلاً. تجر قدميك في الشوارع، تمضي لتتكوم على مقاعد البارات، في روزبيد، في هاريز، أو لتجلس في فرانكو سويس، في شارع سانت أونوريه، تقريباً بمواجهة حجرتك، أو تستند إلى طاولة في مقهى من مقاهي الهال، وتظل في موضعك، على مدى ساعات، حتى النهاية، وجهاً لوجه مع كأس بيرة أو فنجان قهوة سوداء أو كأس نبيذ أحمر. تراقب الآخرين يروحون ويجيئون، متعهدي توزيع اللحوم، بائعي الأزهار، باعة الصحف المنادين بأعلى أصواتهم، شلل الصاخبين المحتفلين، السكارى المنعزلين، الفتيات .

أنت وحيد وأنت تحيد عن دربك. تمشي في الحارات الكئيبة، محاذياً الأشجار المقزّمة، واجهات الأبنية الملساء، البوابات السوداء. تمضي داخل القبح الذي لا ينتهي في باتينيول، في بانتان. لا تصادف أي شيء سوى سُبل فالاس التي نضبت منذ فترة طويلة، كنائس دبقة، مقالع مبقورة، جدران باهتة البياض. حدائق الساحات التي تحبسك قضبان أسيجتها، المستنقعات الراكدة قرب مصب المجرور، البوابات الهائلة

للمعامل. تحت العبّارات المعدنية لحي أوروبا، قاطرات بخارية تقذف مجّات من الدخان الأبيض في بولفار باربيس، في ساحة كليشي، حشود متململة ترفع أعينها نحو السماء .

لن تحطم الحلقة المسحورة للعزلة. أنت وحيد ولا تعرف أحداً، لا تعرف أحداً وأنت وحيد. ترى الآخرين يتلاصقون دبقين، يتحاضنون، يحمي بعضهم بعضاً، يلف بعضهم بعضاً. لكنك لست، وأنت ميت النظرة، سوى شبح شفاف، مجذوم بلون الجدار، طيف اكتمل رجوعه إلى التراب، ساحة محتلة لا يقترب منها أحد. تجهد نفسك برجاء لقاءات غير محتملة. لكن ليس من أجلك هذا الجلد، النحاس، الأضواء التي تشرع باللمعان، هذه الأضواء الواهنة، هذه الجلبة المخملية. أنت وحيد رغم الأدخنة المتكاثفة، رغم ليستر يونغ أو كولتران، وحيد في دفء الأذرعة المهفهف، في الشوارع الخاوية التي يرن فيها موقع قدميك، في التواطئ المستيقظ بانزعاج، المشارب القميئة الباقية وحدها دون أن تغلق .

هناك أعداء لن تواجههم إلا مرة واحدة، زمن معرفة، تماهي البرد مع صفير أفاع مجمّدة، زمن التراجع القهقرى في الوقت المناسب، متجللاً بالعزلة والتململ، ضائعاً، غادرةً بك نظرتك، متيقظ الإدراك بحدة أكبر فأكبر وعبثية أكثر فأكثر

لأدق التفاصيل؛ شعر معقود في حلقة، ظلال كـأس، التشـكيل المتبدل للفافة مهملة، الخبطة الأخيرة لباب ذي درفتين ينغلق. لا شيء يفوتك، لكنك لا تقبض على شيء، إلا ما كان بعد حين، متأخراَ، دائماً متأخراً أكثر، ظلالاً، أشعة منعكسة، صدوعـاً، مواربات، ابتسامات، تثاؤبات، تعباً أو هجراً .

المأساة لم تنقضّ عليك، لم تقع عليك، لقد تغلغلت علـى مهل، انسلّت تقريباً بعذوبة لذيذة. لقد دفعت دفعاً دقيقاً حيـاتك، حركاتك، ساعاتك، حجرتك، مثل حقيقة تقنّعت فـترة طويلـة، بديهية مرفوضة؛ معاندة ودؤوبة، خفية، مستميتة، هيمنت علـى صدوع السقف على تجعدات وجهك في المرآة المشقوقة، علـى أوراق اللعب المنشورة، تغلغلت متسربة في قطرة المـاء فـي صنبور خزان مصطبة السلم، قُرعت كل ربع ساعة في نـاقوس سان روك.

الفخ، كان ذلك الشعور المهيّج أحيانا، تلك الكبريـاء، ذلك النوع من الثمل؛ كنت تظن أنـك لا تحتـاج إلا للمدينـة،

حجارتها وشوارعها، الحشود التي تجرك معها، لا تحتـــاج إلا لقسم لا غير من مشرب في مقهى بوتيت سورس، لمقعد متقـدم في سينما حي؛ لا تحتاج إلا لحجرتك لا غير، لجحرك، لقفصك، لوكرك، حيث تأوي راجعاً كل يوم، من حيث تعاود انطلاقك كل يوم، هذا المكان السحري أو يكاد حيث لم يعد أي شيء من الآن فصاعداً يساعدك على الصبر، حتى الشق في الســـقف، حتـــى العرق الظاهر في خشب الـــرف، حتـــى الزهـــرة علـــى ورق الجدران تنشر، مرة إضافية أيضاً، الاثنين وخمسين ورقة علـى مقعدك الخشبي الضيق؛ تفتش، مرة إضافية أيضاً، عن الحـــل غير المحتمل في متاهة ضائعة الدروب.

لقد فقدت قدراتك. لم تعد تحســـن متابعـــة الانحـــراف البطيء للكرات والتشعبات الدقيقة على سطح قرنيتك. لا وجه، لا هجمة منتصرة، لا مدينة في الأفق تسلمك ألغازها من خـــلال التشققات والظلال.

الفخ: هذا الوهم الخطير في أنك -كيف تقولها- غـير قابل للاجتياز، في ألا تيسّر للعالم الخارجي أي وصول إليـــك في انزلاقك، غير قابل للّمس، مفتـــوح العينيـــن النـــاظرتين أمامهما، مدركاً كل شيء، أدق التفـــاصيل، دون أن تحتفـــظ بشيء. مسرنم مستيقظ، أعمى قد يمكنه الإبصار. كـــائن دون ذاكرة، دون رعب.

لكن لا يوجد مخرج، لا توجد معجزة، لا توجد أية حقيقة. دروع سلحفاة، دروع فولاذية. منذ ذلك اليوم الخانق الذي بدأ فيه كل شيء. الذي توقف فيه كل شيء. تمشي ملاصقاً الجدران الوسخة في الشوارع السوداء، ماسحاً بيدك اليمنى أحجار درجات المداخل، أحجار قرميد واجهات البيوت. تجلس، متأرجح الساقين، من فوق السين، على مدى ساعات في مراقبة الدوامة المجهولة الغور التي يحفرها قوس جسر. تسحب الآسات الأربعة من ورقاتك الاثنتين وخمسين المنشورة. كم من المرات أعدت الحركات المبتورة نفسها، والنزهات نفسها التي لا تؤدي أبداً إلى أية وجهة؟ لا معين لك إلا الملاجئ الرخيصة ذات الأربعة فلوس، صبرك البليد، الألف دورة ودورة التي تعيدك في كل مرة إلى النقطة التي انطلقت منها. من حدائق الساحات إلى المتاحف، من المقاهي إلى السينمات، من ضفاف النهر إلى الحدائق، صالات الانتظار في المحطات، أبهاء الفنادق الفخمة، محلات السعر الواحد، المكتبات، معارض الرسم، دهاليز المترو. الأشجار، الأحجار، الماء، الغيوم، الرمل، القرميد، الضياء، الريح، المطر: عزلتك وحدها لها حساب: مهما فعلت، أينما ذهبت، كل ما تراه لا أهمية له، كل ما تفعله باطل، كل ما تبحث عنه ضلال. العزلة وحدها

الموجودة، هي التي عاجلاً أم آجلاً، في كل مرة، تعود فتراهـا في مواجهتك، ودية أو مدمرة؛ في كل مرة، تلبث وحيـداً، دون معين، في مواجهتك، مضطرباً أو مشوّشا، يائساً أو متململاً.

لقد توقفت عن الكلام والصمت وحده هو الذي جاوبك. لكن تلك الكلمات، آلاف، ملايين الكلمات تلك التي توقفت فـي حلقك، الكلمات التي لا تكملة لها، صرخات الفـرح، كلمـات الحب، الضحكات البلهاء، متى إذن تستعيدها؟

الآن تعيش في رعب الصمت. لكن ألست أكثر الجميـع صمتاً؟

الوحوش دخلت إلى حياتك، الجرذان، أشباهك، إخوتك. العشرات، المئات، الآلاف من الوحوش. تميزها، تتعرف عليها بعلامات خارج حدود الإدراك، بصمتها، بانطلاقتها الهاربـة، بنظرتها المتقلبة، المتأرجحة، المذعورة، التي ترتد كلما تقاطعت

مع نظرتك. الضوء ما يزال في قلب الليل ينبعث من النوافذ العالية في حجراتها الكالحة. وقع خطوها يرن في قلب الليل.

الجرذان لا تتبادل الأحاديث، لا تتبادل النظرات حينما تتلاقى. لكن هذه الوجوه التي لا عمر لها، هذه الأطياف الضعيفة أو الرخوة، هذه الظهور المستديرة، الرمادية، تعرفها قريبة منك في كل ساعة، تلاحق ظلها، أنت ظلها، تتردد على علاماتها، على جحورها، لك المخابئ ذاتها، الملاجئ ذاتها، السينمات الشعبية المنتنة برائحة المطهرات، حدائق الساحات، المتاحف، المقاهي، المحطات، المترو، صالات الانتظار. إحباطات جالسة مثلك على المقاعد، ترسم وتمحي دون توقف على الرمل المغبر الحلقة ذاتها، قراء الصحف المرمية في سلل الأوراق، المشردون الذين لا توقفهم الأحوال الجوية غير المواتية أياً كانت. إنهم يتبعون خطوط سيرك نفسها، بالعبث نفسه، بالتمهل نفسه، بالتعقيد المحبط نفسه. يترددون مثلك أمام مخططات محطات المترو، يأكلون خبزهم بالحليب، جالسين على ضفاف النهر.

مبعدون، منبوذون، محرومون، حملة نجوم مخفية. يمشون وثيابهم تحف بالجدران، خافضي رؤوسهم، متهدلي

الأكتاف، متشنجي الأيدي وهم يتعلقون بأحجار واجهات الأبنية، حركات مرهقة من مهزومين، من ممرغين في التراب.

تمضي وراءهم، تراقبهم بطرف عينك، تكرههم: وحوش لاطئون داخل حجراتهم القميئة، وحوش بأحذية كتانية يجرون أقدامهم قرب أسواق الخضار المتعفنة، وحوش بعيون حنكليس مخضرّة، وحوش بحركات آلية، وحوش هاذية.

تمشي بمحاذاتهم، ترافقهم، تشق طريقك بينهم: المسرنمون، الأجلاف، الكهول، البلهاء، الصم، البكم ببيرياتهم الغاطسة حتى عيونهم، السكارى، المرضى البوّالون الذين ينخرون وينظفون حلوقهم ويحاولون السيطرة على الهزات المتسارعة لوجناتهم، لأجفانهم، الفلاحون التائهون في المدينة الكبيرة، الأرامل، المراؤون، الطاعنون في السن، المتلصصون الخبثاء.

لقد جاؤوا إليك، اختطفوك ممسكين بذراعك.كما لو، مجهولاً ضائعاً في مدينتك بالذات، لم يكن باستطاعتك أن تتلاقى إلا مع مجهولين آخرين؛ كما لو، منعزلاً وحيداً، كنت ترى انقضاض جميع الآخرين المنعزلين الوحيدين عليك. كما لو كانوا يستطيعون وحدهم التلاقي، مدة تناول كأس نبيذ أحمر على مشرب واحد، أولئك الذين لا يتكلمون أبداً، أولئك الذين يتكلمون بمفردهم. المسنّون المجانين، المسنّات السكارى،

أصحاب الرؤى الإشراقية، المنفيون. إنـــهم يتعلقـــون بطـــرف سترتك، بأذيالك، بأكمامك، ينفخون لهاثهم في وجهك.

يجيئون إليك بخطوات قصيرة بابتســـاماتهم الطيبـــة، بنشراتهم الدعائية، بصحفهم، بأعلامهم، البؤساء المقاتلون فـــي سبيل قضايا كبرى حمقاء، أصحاب الوجـــوه النـــافرة العظـــام المنطلقون إلى الحرب في وجـــه التـــهاب النخـــاع الشـــوكي، السرطان، بيوت التنك، البؤس، الفـــالج، العمـــى، المغنـــون الحزانى الذين يجمعون الصدقات من أجل رفاقـــهم، اليتـــامى المضروبون الذين يبيعون مفارش صغيرة، الأرامل المهزولات اللواتي يحمين الحيوانات الداجنة.جميع الذيـــن يدنـــون منـــك، يحجزونك، يمسكون بك، يبصقون في وجهك حقيقتهم المسكينة، مسائلهم الخالدة، أعمالهم الخيرة، طريقهم الصحيـــح. حـــاملو لافتات الإيمان الصحيح الذي سوف يخلص العالم. تعالوا "إليـــه" أنتم يا من تتألمون. يسوع قال: "أنتم" يا من لا تبصرون فكروا بالذين يبصرون.

ذوو البشرة الترابية، ذوو الياقات المهترئة، المفـــأفئون الذين يحكون لك حياتهم، أوقاتهم في الســـجون، أوقاتـــهم فـــي المصحات، رحلاتهم المزيفة، استشفاءاتهم. قدامـــى المعلميـــن الذين يريدون إصلاح الكتابة، المتقاعدون الذين يظنـــون أنـــهم

وضعوا نظاماً لا يخيب لاسترجاع الأوراق العتيقة، المخططون، المنجمون، كشافو الماء، معالجو الأمراض، الشهود، جميع الذين يعيشون بأفكارهم الثابتة؛ الفضلات، البقايا، الوحوش غير المؤذين والهرمون الذين يتسلى بهم معلموهم بصب كؤوس مليئة حتى حوافها لا يستطيعون رفعها إلى أفواههم، الذين أكل الدهر عليهم وشرب لكنهم يصفّرون من ألحان ماري بريزار باذلين ما في وسعهم للمحافظة على المظهر الكريم اللائق.

وجميع الآخرين، الحثالة، الأنقياء، الخبثاء، الراضون عن أنفسهم، أولئك الذين يحسبون أنهم يعلمون، الذين يبتسمون بهيئة الضليع المتفهم، أصحاب الكروش والذين ظلوا على فتوتهم، الزبدة، أصحاب الأوسمة؛ أصحاب الكاس والطاس الذين استخفهم الشراب، ملمّعو الشعر من أبناء الضواحي، الميسورون، المساطيل. الوحوش الأقوياء بحقهم الثابت، الذين يستشهدون بك، يتفرسون بملامحك، يستدعونك.الوحوش مع عائلاتهم الغفيرة العدد، مع أطفالهم الوحوش، مع كلابهم

الوحوش؛ آلاف الوحوش المتجمدون عند إشارة المرور الحمراء؛ إناث الوحوش الصارخة؛ الوحوش ذوو الشوارب، بصدارات، بشيالات، الوحوش السوّاح بأكتافهم المائلة بـالرزم أمام العمائر الشنيعة، الوحوش المتأنقون أناقة أيام الأحد، الحشد المتوحش.

تجر قدميك، لكن الحشد لم يعد يحملك، لكن الليل لم يعد يحميك. تمشي، ما تزال ودائماً، مشّاء لا يتعب، خالد. تبحث، تنتظر. تجر قدميك في المدينة المحنطة، أحجار بيضاء لا خدش فيها تتزين بها واجهات باهتة، قمامة متجمدة، كراس شاغرة كان الحجاب يأتون للجلوس عليها؛ تجر قدميك في المدينة الميتة، هياكل خشبية مهجورة قرب عمائر مبقورة، جسور يلفها الضباب، يلفها المطر.

مدينة متعفنة، مدينة قميئة، خسيسة. مدينة حزينة، أضواء حزينة في الشوارع الحزينة، مهرجون حزينون في النوادي الموسيقية الحزينة، أرتال دَوْر حزينة أمام السينمات

الحزينة، مفروشات حزينة في المخازن الحزينة. المشارب المشؤومة المتعاقبة على امتداد الغران بولفار والواجهات الشنيعة. مدينة صاخبة أم مهجورة، زرقاء شاحبة أو هستيرية، مدينة مبقورة، مخرّبة، متسخة، مدينة مزروعة بالممنوعات، بالحواجز، بالقضبان، بالأقفال. المدينة ــ الجيفة: أسواق الهال المتعفنة، مدن التنك المتنكرة في تجمعات متراصة، قطاع قلب باريس، الرعب الذي لا يطاق في الشوارع العامرة برجال الشرطة، هوسمان، ماجونتا؛ شارون.

مثل سجين، مثل مجنون في زنزانته. مثل جرذ في المتاهة يبحث عن المخرج. تعبر باريس في جميع الاتجاهات. مثل جوعان، مثل ساعٍ حامل لرسالة دون عنوان.

تنتظر، تأمل. لقد تعلقت بك الكلاب، وكذلك خادمات المطاعم والمشارب، خدم المقاهي، بائعات تذاكر السينما، باعة

الصحف، المرشدات في قاعة السينما، جباة الباصات، ذوو العاهات الذين يحرسون الصالات المهجورة في المتاحف. تستطيع أن تتكلم دون خشية، سوف يجيبونك في كل مرة بصوت هادئ النبرات. وجوههم الآن مألوفة لديك. يميزونك، يتعرفون عليك. لا يعلمون أن تلك السلامات البسيطة هي كل ما ينقذك في كل يوم، أنت الذي، طيلة النهار، تكون قد انتظرتها، كما لو كانت مكافأة عمل مجيد قد لا يمكنك التحدث عنه، إنما هم يحدسونه تقريباً.

حينذاك، أحياناً، بيأس، تجرب أن تفرض على حياتك المتزعزعة أغلال انضباط لا يخيب. تفرض النظام، ترتب حجرتك، تنظم موازنة في منتهى الدقة: 500 فرنك شهرياً، مصروفك الشحيح، يُطرح منه 50 فرنكاً أجر حجرتك، فيبقى لك 15 فرنكاً يومياً، تتوزع كما يلي:

علبة دخان غولواز	1.35
علبة كبريت	0.10

وجبة	4.20
تذكرة سينما	2.5
إكرامية لمرشدة السينما	0.20
صحيفة اللوموند	0.40
فنجان قهوة	1.00

يبقى معك 5 فرنكات و25 سنتاً لوجبتك الثانية، التي سوف تكون خبزاً بالعنب أو نصف خبزة طويلة، لفنجان قهوة ثان، للمترو، للباص، لمعجون الأسنان، للمصبغة.

تنظم حياتك مثل ساعة، كما لو كان أفضل ما لديك لكي لا تضيع، لكي لا تعرف كلياً، اندماجك مع مهمات مضحكة، تقرير كل أمر سلفاً، ألا تترك أي أمر للمصادفة. فلتكن حياتك مغلقة، ملساء، مدوّرة مثل بيضة، فلتصبح حركاتك وسكناتك محددة بنظام لا يتغير يقرر كل شيء لك، يحميك رغماً عنك.

بحزم شديد مشكور، تنظم خطوط سيرك. تستطلع باريس شارعاً شارعاً، من بارك مون سوري إلى بيت ـ شومون، من وزارة الدفاع إلى المدافن. تأكل كل يوم، في الساعة نفسها، الوجبة نفسها. تزور المحطات، المتاحف. تشرب قهوتك في المقهى نفسه. تقرأ اللوموند من الخامسة إلى السابعة.

تطوي ثيابك قبل أن تنام. تنظف حجرتك تنظيفاً شاملاً صباح كل سبت. تسوّي سريرك كل صباح، تحلق، تغسل جواربك في حوض من البلاستيك الزهري اللون، تلمّع حذاءك، تغسل أسنانك، تغسل كوبك وتنشفه وتضعه في الموقع نفسه على الرف. تفتح كل صباح، في الدقيقة نفسها، في الموضع نفسه، بالطريقة نفسها، شريط الورق اللاصق الذي يغلق علبتك اليومية من لفافات غولواز.

ترتيب غرفتك. استخدام وقتك. تفرض على نفسك ممنوعات صبيانية. لا تمشي على تقاطع أحجار تبليط الشارع مع حواف الأرصفة.تحترم اتجاه الدوّارات، المواقف الممنوعة. لا تتحمل أن تكون قبل أو بعد الوقت المحدد. تريد أن تشعل لفافاتك كل خمس وأربعين دقيقة.

كما لو، في كل لحظة، كنت تنتظر من أدنى تقاعس منك أن يسحبك فوراً أبعد مما يجب.

كما لو، في كل لحظة، كنت بحاجة لتقول لنفسك: الأمر هكذا لأنني أردته هكذا، لقد أردته هكذا وإلا متّ.

أحياناً، طيلة أمسيات بأكملها، نصف متمدد على المقعد الخشبي الضيق، دون أي ضوء آخر سوى الضيـــاء الشـــاحب والمشتت المار عبر النافذة العالية والذي لا يزيده سوى، تقريباً بشكل منتظم، الوهج الأحمر للفافتك، تصغي إلى جارك يـــروح ويجيء. الحاجز الذي يفصل غرفتيكما من قلة السماكة بحيـــث تسمع حتى تنفسه تقريباً، وأنك تسمعه حتى عندما يجر قدميـــه مرتدياً حذاء من الكتان. تحاول غالباً تخيل هيئته، وجهه، يديه، ما يفعله، عمره، أفكاره. لا تعلم شيئاً عنه، حتى أنك لـــم تـــره

أبداً، ربما في أحسن الحالات، تقاطعت معه ذات يوم على السلم، التصقت بالحائط كي تفسح له المرور، لكن دون أن تعلم آنذاك، دون أن يمكنك أن تعرف أنه هو بالذات. على أنك لا تسعى لرؤيته، فلا تترك بابك نصف مفتوح عندما تسمعه يخرج إلى مصطبة السلم كي يملأ وعاء الغلي لديه من صنبور خزان الماء، تفضل أن تصغي إليه وأن تُشكله حسب هواك. تعلم فقط أن حجرته أكبر بكثير من حجرتك، ما دام يستطيع التنقل فيها، ما دام يحتاج للتنقل كي يصل نافذته، أو إلى سريره أو إلى بابه أو إلى خزانته، بينما، من أوسط حجرتك، تقريباً على مستوى ثلاثة أرباع مقعدك الخشبي، تستطيع، مضموم القدمين، أن تمد يديك وتصل إلى أية نقطة لا على التعيين، النافذة، الباب، المغسلة الصغيرة، زاوية تعليق الثياب، حوض البلاستيك الزهري اللون، الرفّ.

لا بد أن يكون متقدماً في السن، بالاستناد إلى سعاله الأجش قليلاً، تنحنحات حلقه، خطواته الثقيلة قليلاً، دون أن يكون من الضروري أن تنسب إلى تقدمه في السن عزلته، إذ، مثلك، لا يستقبل أبداً أحداً في حجرته. كما لو أن هذا الطابق الأخير من البناية، الذي أنتما فيه، على حد علمك، المستأجران الوحيدان، كان يمثل منذ فترة بسيطة بعض الخطر على سلامة

من ربما قد تكون الرغبة راودتهم، فيما مضى، في الوصـــول إليه، ولا استخدامه لوقته بطقوسية زائدة؛ هذه النقطة الأخـــيرة ترجح بالأحرى أن تبرهن أنه، إلى حد ما مثلك أيضاً، رجـــل عادات، لكن دون شك، في هذه الحالة، بصفاء أكثر قليلاً منـك. إنه يغادر حجرته كل يوم، حتى الأحد، في نهايـــة الصبحيـــة، ويعود بشكل منظم مع حلول الليل، كما لو أن نشاطه، سيّان كان يدرّ عليه ربما أم لا، يرتبط بضوء النهار، ولا يعير أدنى أهمية للساعة: لقد استمر يعود كل يوم أبكر قليلاً، حتى نويل، فـــهو يعود الآن في كل يوم بتأخير أقل.

تظن أنه بائع جوال، بائع ربطات عنق يقدمها في شكل مظلّة، أو هو بالأحرى عارض لمنتج من المنتجات العجائبيـــة لإزالة مسامير القدم، البقع، الثآليل أو الدوالي، أو، ربما أقوى، بائع منوعات بسطته، المؤلفة من حقيبة مفتوحة تنهض علـــى أربع قوائم معدنية متناهية في الصغر، تعرض على طفيليـــي الغران بولفار أمشاطاً، قدّاحات، شفرات، نظارات شمســـية، بيوت جلد واقية، حمالات مفاتيح. مرتكز هذه الفرضية فـــي أساسه أن نشاطه الجوهري، عندما يكون في حجرته، قوامـــه، في الصباح كما في المساء، إغلاق و فتح، أو فتح وإغـــلاق،

أدراج، كما لو كانت لديه مواد كثيرة يجب عليه أخذها كل صباح قبل أن يغادر، وترتيبها كل مساء بعد نهاية نهاره.

ربما أنه بحاجة إلى حقيبته المفتوحة، يستخدمها كطاولة قرب سريره، أو كي يكتب، أو كي يتعشى: تسِمه بسِمات احتفالية قليلاً، مضحكة قليلاً: إنه يمد فوق حقيبته غطاءً مطرزاً بقي له من ثروة قديمة، شمعداناً قميئاً يحمل شمعات رديئة، أدوات الطعام مطابقة لتلك التي ربما أنه يبيعها، أي أنها مؤلفة من طاسة وصحن من البلاستيك الزهري اللون، ومجموعة لوازم من الألمنيوم يتشابك بعضها مع بعض، فالملعقة تحمل أثراً من الشوكة في تجويفها، والشوكة أثراً من السكين، والقطع الثلاث مشدودة بحلقة مطوية لها شكل زرّ ياقة مزيفة، مثبتة على الملعقة، ملتفة على الشوكة والسكين ويشد عليها خاتم من الجلد؛ كما لو، في الحقيقة، بمساعدة الخلط الغريب الحاصل في ذهنك، كان يمكن لتلك الحقيبة، التي وجودها بعيد عن اليقين، أن تكون في الوقت نفسه بسطةَ بائع منوّعات نهاراً، وحقيبة نزهة مساءً. لكن ليس من المؤكد حتى أن جارك يتعشى، لا تسمع أبداً، لا تحس أبداً صوت قلي الكبد، الكوارع، الكلى، التي قد تكون طعامه المفضل. تعلم فقط بشيء من اليقين أنه يذهب ليملأ وعاء

الغلي من صنبور خزان الماء على مصطبة السلم (إذ أن حجرته رغم اتساعها أكثر من حجرتك، فليس فيها ماء جار) وأنه يضعه على سخان طريقة عمله مجهولة لديك، لكنها دون شك من نوع بدائي بالحكم على المدة التي يستغرقها الوعاء حتى يبدأ بالصفير، أي حتى يبدأ غليان الماء.

عبثاً تتنصّت، تمد أذنك، تضعها على الحاجز، ففي النهاية، تكاد لا تعلم شيئاً.يبدو أنه كلما تزايد وضوح إدراكك، كلما تضاءل يقين تخميناتك. دون شك، هو يفتح أو يغلق في كل لحظة أدراجاً، لكن حتى هذا لا برهان عليه، فلا شيء يمنع، مثلاً، أنه، لغاية تجهلها، أو حتى لمجرد مخادعتك: يخبط قطعتين من الخشب بصوت يشبه الإغلاق والفتح، أو أنه لا يفتح ولا يغلق فعلياً درجاً أو أدراجاً عدة، إلا مجاناً، أي دون أن يضع فيها شيئاً، دون أن يخرج منها شيئاً، فقط لمجرد إحداث ضجة، أو لأنه يحب ضجة الأدراج التي تفتح وتغلق.يخرج دون شك في نهاية الصبحية، لكنك لا تكون حاضراً دائماً لتجزم

بذلك، وعلى حد سواء، فأنت تخرج أحياناً مع حلول الليل قبل أن يكون قد عاد؛ ربما أنه حتى يتظاهر بالخروج، ينزل بضع درجات ليعود إلى الصعود بنعومة متناهية بحيث، رغم جميع جهودك، لا يعود بإمكانك لحظ حضوره. دون شك يملأ ماء من مصطبة السلّم، دون شك يصفّر وعاء الغلي عندما يتحول الماء إلى الفوران: لكن ربما كان هو من يصفّر، كيف لك أن تعلم؟

مع ذلك، فحياته، أحياناً، جزء منك، أصوات جلبته ملك لك، ما دمت تسمعها، تنتظرها، ما دامت تحفظك على قيد الحياة، مثل قطرة الماء، نواقيس سان روك، جلبة الشارع، جلبة المدينة. لا يهمك كثيراً أن تخطئ، أو أن تؤّل، أو أن تخترع اختراعاً. يكفي أنك جعلته بائع منوعات كي يكون كذلك، مع حقيبته المطوية، أمشاطه، قداحاته، نظاراته الشمسية. إنه يعيش الحياة الواهية التي تدعه يعيشها، غارقاً بمجرد خروجه من حقل إدراكك، ميتاً حالما يسيطر عليك النوم، محكوماً عليه بقية

الوقت أن يملأ وعاءه ماءً، أن يسعل، أن يجر قدميه، أن يفتـــح، أن يغلق أدراجه.

لكن لعلك، دون أن تدري، وأنت قرينه الأخرس، أنــت أيضاً جزء منه؟ لعله مثلك، أنت الذي تترصد سعاله، صفــيره، أصوات أدراجه، لعل صوت ارتطام فنجان القهوة الذي تضعـــه على الرف، حفيف الصحف التي تضعها ثم تعود إليها، انـزلاق أوراق اللعب التي ترتبها على مقعدك الخشبى الضيق، سقســقة الماء لديك، لهاثك هي بالنسبة له، مع قطرة الماء، النـــاقوس، جلبة الشارع، المدينة، النسيج السميك للزمن الجاري، للحيـــاة الباقية.لعله يحاول يائساً أن يعرفك، لعله يؤّل دون أن ينتهي كل علامة تصل إلى إدراكه: من تكون، ماذا تعمل، أنــــت الــذي تحفحف صحفك، أنت الذي تظل أياماً عدة دون أن تخـــرج، أو أياماً عدة في الخارج دون أن تعود؟

لكنك تُحدث أصواتاً قليلة جداً! يمكنه اكتشاف وجــودك لا غير، وَ، إذا كان شديد الانتباه لذلك، فهذا لأنه خائف، فـــهذا لأنك تقلقه: إنه مثل ذلك الغرّير العجوز في وكره الذي لا يوفر له أبداً حماية جيدة كافية، فيسمع غير بعيد عنه جلبة لا يتمكـــن أبداً أن يحدد مكانها فعلياً، جلبة لا تتزايد أبداً لكنها لا تتنـــاقص أبداً، وهي لا تتوقف أبداً. يسعى إلى أن يحمي نفسه، يحــــاول محاولات غير موفقة، ينصب لك أفخاخاً، أن يجعلك تعتقد أنــه قوي، أنه لا يخافك، أنه لا يرتجف: لكنه من الشيخوخة بمكان! لم يعد يملك إلا قوة أن يحسب ويعيد حساب ثروته دون توقف، مغيّراً مخبأها في كل لحظة.

ولست تنفر، أيها البليد، أن تعتقد أحياناً أنك تسحره، أنه خائف حقاً: تبذل جهدك لتمكث صامتاً لأطول فترة ممكنـــة؛ أو

أنك تحك بطرف خشبة، بمبرد، بقلم رصاص، أعلى الحــــاجز الفاصل بين حجرتيكما، محدثاً جلبة واهية ومثيرة للأعصاب.

أو أنك، على العكس، تسيطر عليك مودة مفاجئة، فتكاد ترغب أن تبعث إليه رسائل إنقاذ، ضارباً بقبضة اليـــد علـــى الحاجز، الضربة الواحدة (أ)، الضربتان (ب).....

الآن ما عاد من ملجأ. أنت خائف، تتوقع أن يتوقف كل شيء، المطر، الساعات، موج السيارات، الحياة، البشر، العالم، أن ينهار كل شيء، الأسوار، البروج، السقوف والأرضيات؛أن يتهاوى أرضاً الرجال، والنساء، الشيوخ والأطفال، الكلاب، الخيل، الطيور، واحداً تلو واحد، مشلولين، مصابين بالطاعون، بالصرع؛ أن يتفتت الرخام غباراً، أن ينطحن الخشب رماداً، أن تتداعى البيوت بصمت، أن تذوّب أمطار الطوفان الدهان، تفكك

درفات الخزائن المعمرة مئات السنين، تمزق الأقمشة المنسوجة، تحلّ حبر الصحف؛ أن تلتهم نار لا ألسنة لهب لـــها درجـــات السلالم؛ أن تتهدم الشوارع في أوساطها تماماً، كاشفة عن متاهة المجارير الفاغرة؛ أن يغزو الصدأ والضباب المدينة.

أحياناً، تحلم بأن النوم موت بطيء يغزوك، تخدير نـاعم ورهيب في الوقت نفسه، تآكل لذيذ: يتصاعد البرد على امتـــداد ساقيك، على امتداد ذراعيك، يتصاعد على مهل، يغيّبك، يلغيك. إبهام قدمك جبل ناءٍ، ساقك نهر، خدك مخدتك، تسكن بـــأكملك في إبهامك، تنصهر، تسيل مثل الرمل، مثل الزئبق.لست بعـــد سوى حبة رمل، خلايا مضغوطة، شــــيء لا قـــوام لــــه، دون عضلات، دون عظام، دون ساقين، دون ذراعين، دون عنـــق، مختلط القدمين واليدين، بشفتين هائلتين تلتهمانك.

تتضخّم تضخماً هائلاً، تنفجر، تموت، منغلقاً، متجمداً: ركبتاك من حجر قاس، عظام ساقيك قضبان فولاذ، بطنك كتلة جليدية، عضوك فرن تجفيف، قلبك قِدر من معـــدن. رأســك

أرض بُوار يغزوها الضباب، أشرعة خفيفة، مفارش ســـميكة، معطف ثقيل .....

حاجباك يرتفعان، ينعقدان؛ جبينك يمكن أن يتجعد، عيناك شاخصتان إليك. فمك ينفتح وينغلق.

تراقب نفسك بإمعان في المرآة، و، حتى وأنت تتفحّص نفسك عن قرب، تجد وجهك قد تحسّن (صحيح أنه ضوء المساء وأن مصدر الضوء هو من خلفك، فلا ترى سوى زغب حواف

أذنيك الواقعة فعلاً ضمن دائرة الضوء) عما كنت تعرفه. إنــه وجه نقي، متناغم الاتساق، يكاد يكون جميل الأطراف. سـواد الشعر، الحاجبين والمحجرين ينبجس مثل شيء حيّ من مجموع الوجه المترقب المنتظِر. النظرة غير مغلوبة على الإطـلاق، لا يوجد أثر لهذا، لكنها أيضاً ليست طفولية، بل قد تكون أقـرب بشكل لا يصدق إلى الحيوية، شرط ألا تكـون مجـرد نظـرة مراقبة، إذ أنك تحديداً تقوم حالاً بمراقبة نفسك وأنك تريـد أن تخيف نفسك.

ما الأسرار التي تبحث عنها في مرآتك المشقوقة؟ مـا الحقيقة في وجهك؟ هذا الوجه المستدير، المنتفخ قليلاً، تقريباً قد بدأ يتورّم، هذان الحاجبان المنعقدان، هذه الندبة الصغيرة مـن فوق الشفة، هاتان العينان الجاحظتان قليـلاً، هـذه الأسـنان الموزعة على غير انتظام، مغطاة بقلح مائل للاصفرار، هـذه الزوائد الصغيرة، بثور، بقع جلدية، نمش أسود، ثآليل، شـامات مائلة للسواد أو للبنّي تنبت منها بضع شعرات، تحت العينيـن، على الأنف، تحت الصدغين. وإذا ما اقتربت، كان بإمكـانك أن

تكتشف أن جلدك مخدّد، مجعد، جاف بشكل مدهـــش. يمكنــك رؤية كل سمّ، كل انتفاخ، تنظر ملياً، تتفحص جـــانبي أنفــك، تشققات شفتيك، منبت شعرك، الشعيرات الدموية المخدّدة لبياض عينيك باللون الأحمر.

أحياناً، تشبه بقرة. عيناك الجاحظتان لا تعـبّران عـــن أدنى انشغال بما تراه. ترى نفسك في المرآة ولا يوقظ هــذا أي شعور، حتى الشعور الذي يمكن أن يتولد بكل بساطة من العادة. هذا اللمعان الأقرب إلى البقري والذي علمتك الخـــبرة كيــف تحدده كأوثق صورة عن وجهك يبدو أنه دون أدنى مودة لديك، دون أدنى عرفان، كما لو، على وجه التحديد، لم يكن يتعـــرف عليك، أو بالأحرى كما لو، بتعرفه عليك، كان يجتهد فـــي ألا يعبر عن أدنى استغراب. لا يمكنك أن تفكر جدياً أنه ناقم عليك، ولا حتى أنه يفكر بأمر أخر. بكل بساطة، مثل بقرة، حجرة، أو الماء، ليس لديه شئ خاص يقوله لك. إنه ينظر إليك من بـــاب التأدب، لأنك تنظر إليه.

تشد زاويتي عينيك كي تعطي لنفسك الهيئة الصينيـــة، تجرب بعض الوضعيات العابسة، جاحظ النظر: الأعور ذو الفم المتشنج، القرد ذو اللسان المنزلق تحت الشفة العليا أو تحـــت الشفة السفلى، غائر الوجنتين، منتفخ الوجنتين، لكـــن، صينيـــة

كانت أم عابسة، بقرة المرآة المشقوقة تتجاوب مع التقلبات المفروضة عليها دون أي رد فعل. وداعتها من الوضوح بحيث تطمئنك أولاً قبل أن تقلقك، إذ، في النهاية، يكاد هذا الأمر أن يصبح مزعجاً.يمكنك خفض عينيك أمام رجل أو أمام قط، لأن الرجل والقط ينظران إليك، ولأن نظرتهما سلاح (ولطف النظرة ربما كان من أقسى أنواع الأسلحة، سلاح يجردك من كل سلاح بينما لا تكون الكراهية قد أعطت أي تأثير) ولكن في النهاية، لا شيء أقل كياسة من خفض العينين أمام شجرة، أو أمام بقرة، أو أمام انعكاس صورتك في المرآة.

فيما مضى، في نيويورك، على بعد مئات الأمتار من المكاسر التي تتحطم عليها آخر أمواج الأطلسي، استسلم أحدهم للموت. كان يعمل كاتباً لدى رجل قانون. مختفياً وراء ستر من القماش، ظل جالساً إلى مكتبه ولم يعد يتحرك منه أبداً. كان طعامه البسكويت بالزنجبيل. كان يراقب من النافذة جداراً من القرميد المسودّ كان بإمكانه تقريباً أن يلمسه بيده. كان من غير

المجدي سؤاله عن كائن ما كان، أن يعيد قــراءة نــص أو أن يذهب إلى البريد. لا التهديدات ولا التوسلات كان لها أي تأثير عليه. في النهاية، أصبح تقريباً أعمى. كان لابد مــن طــرده. فاستقر على سلالم البناية. فحجزوه، لكنه جلــس فــي ســاحة ورفض تناول الطعام.

لم تمت ولست أكثر حكمة.

لم تعرض عينيك للسعة الشمس.

ممثّلا الدرجة الثانية المسنّان لم يأتيا بحثاً عنــك، لــم يلتصقا بك فهما وأنت كتلة واحدة يستحيل سحق أحدكم فيها دون سحق الاثنين الآخرين.

براكين الرحمة الإلهية لم تحل عليك بعطف.

ما أروع ذلك الاختراع الذي اسمه الإنسان! يستطيع أن ينفخ في يديه كي يبعث فيهما الدفء وأن ينفخ على حسائه كي يجعله يبرد. يمكنه أن يمسك بلطف، عندما لا يفيض به القرف، حشرة من غمديات الأجنحة بين إبهامه وسبابته. يمكنه أن يزرع خضاراً ويستخرج منها طعاماً له، ثياباً، بعض عقاقير، وحتى عطوراً تفيده في إخفاء رائحته المنفّرة. يمكنه أن يطرق المعادن ويصنع منها طناجر (وهو ما ليس في استطاعة قرد أن يفعله).

كم من الحكايات المثالية تمجد عظمتك، عذابك! كم من روبنسون، من روكانتان، من مرسو، ليفركون! نقاط القوة، الصور الجميلة، الأكاذيب: هذا غير صحيح. لم تتعلم شيئاً، لن يكون بإمكانك أن تشهد. هذا غير صحيح، لا تصدقهم، لا تصدق الشهداء، الأبطال، المغامرين!

البلداء وحدهم ما زالوا يتكلمون دون ضحك عن "الإنسان"، عن "الحيوان"، عن "السديم"، أدنى الحشرات شأناً تبذل في سبيل البقاء طاقة مماثلة، إن لم تكن أعلى من تلك التي لزمت لذلك الطيار لا على التعيين، الضحية لساعات الطيران الإجبارية التي فرضتها عليه شركته التي كان زيادة في الطين

بلّة فخوراً بالانتساب إليها، لاجتياز جبل هو أقل من أن يكـــون أعلى جبال الكوكب الأرضي.

الجرذ في متاهته، قادر على جسارات حقيقية: إذ يربـــط ربطاً صحيحاً بين الدوّاسات التي يجب أن يضغط عليها للحصول على طعامه وبين أصابع بيانو، أو مدرج أورغ، ونتمكن بالتـــالي أن نجعل الحيوان يعزف عزفاً موفقاً "يا يسوع فليــــدم فرحـــي" وليس ما يمنعنا أن نظن أنه يستمد من ذلك متعة فائقة.

ولكن أنت، يا ديدلوس المسكين، لم يكـــن هنـــاك مـــن متاهة. أيها السجين المزيف، باب سجنك كان مفتوحاً. لم يكـــن من حارس أمامه، لم يكن من رئيس حرس في نهاية الممر، لـم يكن من "كبير مفتشين" عند باب الحديقة.

الوصول إلى الأعماق، هذا أمر لا يعني شيئاً. لا أعماق اليأس، لا أعماق الكراهية، التهاوي الأثيلي، العزلة المتكـــبرة. الصورة المبالغ في جمالها عن الغواص الذي، بضربـــة قـدم

قوية، يعود إلى السطح موجودة لتذكرك، إن كان الأمر يستد
ذلك، أن ذاك الذي سقط من حقه جميع الأمجاد: الرحمة الإلـهـ
تنتشر فوقه مثلما هي فوق أهل السماوات الذين يمنحهم سبحا
رعايته. الآثمون مثلهم مثل الغواصين، مخلوقون لنيل الغفر ان

لكن لا راحيل تائهة استقبلتك عند ما تبقّى بأعجوبة بلوطة باكوت كي تأتي، أنت بدورك، يتيماً جديداً، لتكـــو شاهداً.

والدتك لم تَخِط حاجاتك من جديد. أنت لا تمضي، للمر الواحدة بعد الألف، باحثاً عن حقيقة التجربة ولا مبلوراً في أت روحك الضمير البكر لجنسك البشري.

لا أحد من الأسلاف الغابرين، لا أحـــد مـــن الصنّـــ الغابرين سوف يقدم لك العون اليوم لا ولا أبداً.

لم تتعلم شيئاً، إلا ما كان من أن العزلة لا تعلّم شـيئاً، من أن اللامبالاة لا تعلم شيئاً: كانت خدعة مراوغة، وهماً آسراً ومفخّخاً. كنت وحيداً هذا كل شيء فكنت تريد حماية نفسك؛ أن تنقطع الجسور ما بينك وبين العالم إلى الأبد. لكنك ضئيل الشأن جداً والعالم كلمة كبيرة جداً: لم تفعل أبداً أي شئ سـوى أنـك تشرّدت في مدينة كبيرة، سوى أنك مشيت بضـع كيلومـترات محاذياً واجهات بيوت، واجهات مخازن، حدائق وكورنيشات.

اللامبالاة غير مجدية. باستطاعتك أن تريد أو لا تريد، ما همّ! أن تلعـب أو لا تلعـب دورة بالبليـاردو الكـهربائي، فأحدهم، في جميع الأحوال، سوف يدخل قطعة مـن عشـرين سنتيماً في شق الآلة. يمكنك الإيمان أنك بتناولك كل يوم للوجبة نفسها تؤدي عملاً حاسماً. لكن رفضك لا جدوى منه. حيـاديتك لا تعني شيئاً. خمولك وغضبك لا جدوى منهما على حدٍ سواء. تظن أنك تمضي، لا مبالياً، تسير على امتداد الجادات، تميل هنا

وهناك في المدينة، تنخرط في موج الحشود، تخترق لعبة الظلال والتشققات.

لكن لم تُحدِث شيئاً: لا معجزة، لا انفجار.

كلما انفرط يوم ما زاد إلا من تفتيت صبرك، ما وضّح جلياً إلا نفاق جهودك المضحكة. كان من الضروري أن يتوقف الزمن كلياً، لكن ليس لأحد القوة الكامنة للوقوف في وجه الزمن. استطعت أن تغش، أن تختلس نتفاً، ثواني، لكن نواقيس سان روك، تناوب الإشارات الضوئية عند تقاطع شارع البيراميد مع شارع سانت أونوريه، السقوط المنتظر لقطرة الماء من صنبور خزان مصطبة السلم، لم تتوقف أبداً عن حساب الساعات، الدقائق، الأيام والفصول. استطعت التظاهر بنسيان ذلك، استطعت أن تمشي ليلاً، أن تنام نهاراً. لكنك لم تخدع الزمن.

لفترة طويلة بنيت وهدمت مخابئك: النظام أو العطالة، الضياع أو النوم، جولات الليل، اللحظات المحايدة، تملّص الظلال والأضواء. لعلك قد تستطيع لفترة طويلة أيضاً الكذب على نفسك، إلغاء عقلك، الوقوع في شباكك نفسها. لكنها نهاية

اللعبة، العيد العظيم، الثمل المخادع للحياة المعلقة. العـــالم لـــم يتزحزح وأنت لم تتغير. اللامبالاة لم تجعلك مختلفاً.

لم تمت. لم تصبح مجنوناً.

المآسي غير موجودة، إنها في مكان آخـــر. فـأصغر مصيبة ربما كانت كافية لإنقاذك: إذن لكنت ضيعت كل شـيء، لكان لديك شيء ما تحميه، كلمات تقولها لتُقنع بها، لتحرك بها. لكنك لست حتى مريضاً. فلا نهاراتك ولا لياليك فـــي خطـــر. عيناك تريان، يدك لا ترتعش، نبضك منتظم، قلبك يخفق. لـــو كنت قبيحاً، ربما قبحك كان آسراً، لكنك لست حتى قبيحاً، ولا أحدب، ولا تعتاعاً، ولا مبتور اليد، ولا مقعداً ولا حتى أعرج.

لا لعنة تثقل على كتفيك. أنت وحش، جائز، لكن ليـــس من وحوش الجحيم. لا حاجة بك كي تتشنج، كـــي تزعـــق. لا

ينتظرك أي امتحان، أية صخرة سيزيفية، لن يُمدّ إليك أي كوب كي ترفضه على الفور، لن ينقضّ أي غراب على كُرتي عينيك، لم يُنكب أي عُقاب بالقصاص غير المفـــهوم فينـــهش كبـــدك، صباحاً، وظهراً، ومساء، لم يطلب منك أن تجر قدميـــك أمـــام قُضاتك، صارخاً تطلب العفو، تتوسل الرحمة، لا أحد يدينك ولم تقترف خطيئة. لا أحد ينظر إليك كي يسرع بالإشاحة عنك في ذعر وهلع.

الزمن، الذي يرعى كل شيء، قدّم الحل رغماً عنك.
الزمن، الذي يعرف الجواب، تابع جريانه.

إنه يوم مثل هذا اليوم، بُعيد ذلك بقليل، قُبيل ذلك بقليل، كل شيء يعود من جديد، كل شيء يبدأ، كل شيء يستمر.

توقّف عن الكلام كرجل مستسلم للأحلام.

انظر! انظر إليهم. إنهم أمامك آلاف وآلاف، حـــرّاس صامتون، رجالُ بَرّ يقفون دون حراك، متجمدين على امتـــداد شوارع النهر، ضفاف النهر، على امتداد الأرصفـــة الغارقـة بالمطر في ساحة كليشي، مستسلمين مع أحلامهم بالمحيطـــات، منتظرين سماء الضباب، هدير المد الصاعد، النداء المبحـــوح لطيور البحر.

كلا. لم تعد السيد المجهول للعالم، ذاك الذي لـــم يكــن للتاريخ أي تأثير عليه، ذاك الذي لم يكن يحس المطر يـــهطل، الذي لم يكن يرى الليل يخيّم. لم تعد الـــلا متـــأثر، الصـــافي، الشفّاف. أنت خائف، تنتظر. تنتظر، في ســـــاحة كليشـــي، أن يتوقف هطل المطر.